في أدب الرحلات

من استانبول إلى قرطبة

الناشـــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
العنـــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد - مساكن درباله - فيكتوريا - الإسكندرية.
تليفـــــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣
الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E-mail

dwdpress@yahoo.com
dwdpress@biznas.com

Web site

http:/ www.dwdpress.com

عنوان الكتاب : فى أدب الرحلات من استانبول إلى قرطبة
المؤلــــــف: أحمد فضل شبلول
رقم الإيداع: ١٤٩٦٠ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى: 8 - 569 - 327 - 977

في أدب الرحلات

من استانبول إلى قرطبة

أحمد فضل شبلول

الطبعة الأولى

٢٠٠٦ م

النـاشـر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

تغرّبْ عن الأوطانِ في طلبِ العلا
وسافرْ ففي الأسفارِ خمسُ فوائدِ
تفرُّجُ همٍّ، واكتسابُ معيشةٍ،
وعلمٌ، وآدابٌ، وصحبةُ ماجدِ

(الإمام الشافعي)

مقدمـــة

لأدب الـــرحلات سحره الخاص، فهو ليس أدبا تسجيليا أو فوتوغرافيا، كما يعـــتقد الـــبعض، ولكنه أدب ينبض بالحياة والحركة والثقافة والتنوع والسفر، ومن خلال سطوره يعانق كاتبه روح المكان والزمان، ويتجلى تفاعله مع الناس أو البشر الذين يعيشون في البلد الذي يزوره أو يكتب عنه، فتنتقل عدوى التفاعل إلى القارئ المُحـــب لهـــذا الـــنوع من الأدب، الذي أستطيع أن أقول عنه، إنه أدب الحياة في مجتمعات متباينة.

وفـــي كثير من الأحيان يصبح الكاتبُ طفلا صغيرا، خاصة حين تقع عيناه علـــى أشياء يراها لأول مرة في حياته، في البلد المُزار، فيقف مدهوشا أمامها، أو حيـــن تقـــع عيناه على أناس يرى ملامحهم وطبائعهم وعاداتهم وتقاليدهم التي من الممكـــن أن تكون جديدة عليه، فيحاول أن يفهم الوجوه، ويقرأ الملامح، ويبحر في أســـرارها، ويفـــك شـــفراتها، أحيانا يفلح في ذلك، وأحيانا يفشل، ولكن في جميع الأحـــوال، يكون الكاتب سعيدا بما يراه، ويحاول أن يكتب انطباعاته مع شيء من الفضفضة وشيء من الخيال، فيمتزج الواقع بالخيال، الأمر الذي يؤكد ما يذهب إليه البعض من أن هناك أدب رحلات واقعيا وخياليا، وهو ما يخلع الصفة الأدبية على الرحلة، ويبعدها عن كونها تسجيلا، أو نقلا فوتوغرافيا، أو مجرد وصف لمكان من الأمكنة، في زمان من الأزمنة.

لقـــد حضّ الأدبُ والأدباء، والشعرُ والشعراء، على السفر والتجوال والتنقل والـــترحال، لأن فـــيه فوائد جمة، منها ما ذكره الإمام الشافعي في الشعر المنسوب إليه، في قوله:

تغرّبْ عن الأوطانِ في طلبِ العلا
وسافرْ ففي الأسفارِ خمسُ فوائدِ
تفرُّجُ همٍّ، واكتسابُ معيشةٍ،

وعلمٌ، وآدابٌ، وصحبةُ ماجدِ

وقال أحد الشعراء:

في الذكرياتِ وفي الترحال أشجانُ

فيها من العلمِ والعرفانِ ألوانُ

أطوفُ حول زوايا الأرض أدرسُ أح

والَ الشعوبِ وما صاروا وما كانوا

ولعل متعة السفر والرؤية ومحاولة الفهم والكتابة، لا تعادلها عند الكاتب متعة أخرى، على الرغم مما يقال: "**السفر قطعة من العذاب**".

ومن هنا كان حرصي على الكتابة عن البلاد والمدن التي زرتها في السنوات الأخيرة، بل أحيانا كنت أزور بلدًا ما لأكتب عنه، بعد أن كانت الكتابة عن البلد المُزار شيئا ثانويا، يأتي من قبيل تداعياتِ الرحلة – وقد لا يأتي – بعد المشاركة الأدبية في مؤتمر أو مهرجان أو ندوة، أو سفر للاستمتاع أو الاستجمام أو التصييف أو العمل.

وعادة ما تكون لحظات الوداع أو الرحيل عن البلد المُزار، لحظات إنسانية دامعة ورائعة، فما أن تبدأ مشاعر الألفة والمودة بينك وبين هذا البلد في الظهور والتشكُّلِ، إلا ويكون قرار الرحيل والمغادرة قد اشرأب بعنقه، ورفع عقيرته بأغاني الوداع، متحدثا عن جواز السفر، مترنما بأختامه، ومقلبا صفحاته، فلا تملك إلا أن تذكر قول المتنبي:

إذا ترحَّلتَ عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم، فالراحلون همُ

يا من يعزُّ علينا أن يفارقهم

وجدانُنا، كلُّ شيء بعدكم عدمُ

• • •

وقــد بــدأتُ التعامل مع أدب الرحلات ــ بهذا المفهوم ــ منذ أن زرت أو رأيت باريس في صيف ٢٠٠٢ فكتبت عنها من زوايا معينة، وليس من كل الزوايا بطبــيعة الحــال، فلــباريس ألف زاوية وزاوية، أو كما قال الفنان الراحل يوسف فرنسيس (باريس الألف وجه). وكتبت عن بعض ما كُتب عنها في الرواية العربية، وفــي المكتــبة العربــية والمترجمة، وأشرتُ إلى القليل من شواطئ الشعر والفن التشــكيلي فــي باريس، وكان عنوان الكتاب الذي صدر في طبعتين: إلكترونيــة ٢٠٠٥، وورقية ٢٠٠٦، "رأيتُ باريس".

واليوم، أضيف إلى الرحلة الباريسية، رحلات أخرى إلى تركيا (استانبول، وبورصــا) وبلغاريــا (فارنــا، ونيسبار) وإسبانيا (قرطبة، والزهراء) إلى جانب رحــلات وزيارات عربية قمتُ بها في السنوات القليلة الماضية، إلى الكويت ودبي وتونــس والــرياض، ورحــلات وزيارات أخرى داخل مصر في أقصى الشمال (مرسى مطروح، وبلطيم) وأقصى الجنوب (أسوان).

إن أدب الرحلات يؤدي ــ لا شك ــ دورا كبيرا في التقارب بين الشعوب، وفي التعرف على البشر في أنحاء العالم المختلفة، وخاصة تلك الأماكن التي تجذب روح الإنسان، فيتمنى العيش فيها أو رؤيتها، ولو لأيام معدودات، لعله يأخذ العظة والعــبرة ممــا قد حدث أو يحدث لبعض البلاد، أو يتطلع للأخذ بأسباب تقدم بلاد أخرى. ومن هنا كان الحض القرآني على السفر والسير في البلاد.

قال الله تعالى:

﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾. [غافر: ٢١].

وقد وردت كلمة "**السَّفَر**" في القرآن الكريم خمس مرات.

وفــي القرآن الكريم أيضا ذكر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالى موسى عليه السلام، لما كلّ وملّ وجاع في السفر، فقال لغلامه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

بـل إنـنا نجد في المنهج الإسلامي، صلاة السفر، ودعاء السفر ﴿سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [الزخرف:١٣، ١٤].

أيضا نتذكر دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم:

﴿اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل﴾.

أيضا في المنهج الإسلامي نجد: زاد المسافر، وفقه السفر، ونجد أن الشرع الاسـلامي، أباح الإفطار للمسافر فى شهر الصوم، وأجاز الجمع والتقصير لبعض الصـلوات أثـناء السـفر، وكـان يثار دائما السؤال عن المسافة التي يقصر فيها المسافر؟

غـير أن الـناس في الجاهلية كانوا يتشاءمون، أو يتطيرون في الأسفار، خاصة إذا نعق غراب في بداية الرحلة، ومنهم من كان يضرب بالقداح.

وفي ذلك يقول النابغة الذبياني:

زعم البوارحُ أن رحلتنا غدا
وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ
لا مرحبًا بغدٍ ولا أهلا به
إن كان تفريقُ الأحبة في غدِ

• • •

ولعـل اختـياري عـنوان "مسافر إلى الله" لديواني الأول الذي صدر عام ١٩٨٠، أظهر الرغبة الدفينة في التجوال والترحال والتنقل والسفر الذي مهما طال فانـه في النهاية يحمل الشوق والرغبة في لقاء المحبوب الواحد الأحد، الله سبحانه وتعالى. وهي نظرة بها شيء من صوفية الشعراء في ذلك الوقت.

وقبلها ــ وبعدها ــ كنا نحلق مع رحلات ابن بطوطة، وابن جبير، ورحلة الطهطــاوي إلى باريس التي سجلها في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وغيرها.

أمــا رحــلات سندباد البحري، وسندباد البري، وبساط الريح في ألف ليلة ولــيلة، ورحــلات أوديسيوس في الإلياذة والأوديسة لهوميروس، ورحلات الجحيم والمطهــر والفردوس في الكوميديا الآلهية لدانتي، وغيرها من الرحلات المماثلة، فمن الممكن إدخالها في باب أدب الرحلات المتخيل.

كمــا سافرنا على الورق مع أنيس منصور في كتبه الممتعة، ومنها "حول العالم في ٢٠٠ يوم"، و"أعجب الرحلات في التاريخ"، وما كتبه جول فيرن في "٨٠ يوما حول العالم"، وغيرها وغيرها.

ولا أريد الحديث في هذه المقدمة ــ التي طالت بعض الشيء ــ عن أجواء الــرحلات والسفر أكثر من ذلك، وأتركك عزيزي القارئ، إلى مقالات هذا الكتاب **"من استانبول إلى قرطبة"** التــي أرجــو أن تستمتع بها، مثلما استمتعت بها أثناء كتابتها، فكنت أسافر ثانية من خلالها، ولكن على الورق.

وإلى سفر آخر إن شاء الله.

أحمد فضل شبلول

ميامي - الإسكندرية

٢٠٠٦/٤/٢١


الرحلة التركية

شمس تركية

بين استانبول والإسكندرية

تمـــتاز اســـتانبول بطبيعة خلابة، وجبال خضراء، ومرتفعات أو مدرجات طبيعية، أقيمت عليها البيوت والمنازل، فشوارعها عبارة عن مطالع ومنازل، وقليلة هي الشوارع المستوية.

كنـــت أســـمع دائما أن استانبول تشبه الإسكندرية، أو إن الإسكندرية تشبه اســـتانبول، ولكـــن فـــي حقـــيقة الأمر فإن المدينتين مختلفتان عن بعضهما كثيرا، فشوارع الإسكندرية في معظمها مستوية، عدا بعض الأماكن القليلة، مثل كوم الدكة ــ المـــتاخمة لاستاد الإسكندرية حاليا ــ المبنية على ربوة عالية بعض الشيء. أما اســـتانبول ــ فكمـــا ســـبق القول ــ الأغلبية العظمى من شوارعها على مرتفعات ومنخفضـــات، وتـــلال ســـبعة، ومنظرها من البحر عبارة عن مدرجات خضراء وحمـــراء، فـــاللون الأخضر هو لون أوراق الأشجار والغابات والحدائق والنباتات المخـــتلفة، وهو الغالب على تلك المدينة، أما الأحمر فهو لون القرميد الذي يغطي أســـطح معظم مساكنها، على هيئة مثلثات متساوية الأضلاع، أو مختلفة الإضلاع، حتى لا تتجمع مياه الأمطار الغزيرة، أو الجليد، فوق الأسطح.

فـــي الإسكندرية يوجد شواطئ للاستحمام منتشرة على طول الكورنيش أو الســـاحل المطـــل علـــى حوض البحر المتوسط، ابتداء من أبي قير وحتى العجمي والســـاحل الشـــمالي، وإن كانت التوسعة الأخيرة للكورنيش قد أكلتْ كثيرا من تلك الشـــواطئ. أما استانبول فإن شواطئ الاستحمام فيها قليلة جدا، وفي أماكن يصعب على الشخص العادي الوصول إليها.

وقـــد حملت معي لباس بحر (مايوه) ظنا مني أنني سأجد بسهولة شواطئ أســـبح فـــيها مـــثلما هو الحال في الإسكندرية، ولكن لم تمس قدمي مياه البوسفور

والدردنيل أو بحر مرمرة أو القرن الذهبي، أو البحر الأسود، أو البحر المتوسط، أو أي بحـــر آخـــر في آسيا وأوربا تقع عليه استانبول. وعندما سألت عن سبب عدم انتشار شواطئ الاستحمام، قيل لي إنها موجودة في أماكن معينة، وليست على طول الشواطئ كما هو الحال في الإسكندرية.

تقع الإسكندرية في أقصى الشمال من القارة الإفريقية، وفي مواجهة القارة الأوربـــية، أمـــا استانبول فيقع جزء منها في آسيا، والجزء الأكبر في أوربا، وهي بذلـــك تجمع بين الشرق والغرب في آن واحد، أما المناخ فهو متقارب، ولا يوجد فرق كبير في درجات الحرارة بين المدينتين، ففي شهر أغسطس على سبيل المثال، فإن النهار جوه صيفي حار قليلا، وتتراوح درجات حرارته بين ٢٨ ــ ٣٢ درجة مئوية، وفي الليل تنخفض درجة الحرارة، وتهب نسمات باردة جميلة على شواطئ المدينتين، تخفِّف من حدة شمس النهار. غير أن نسبة الرطوبة أعلى في الإسكندرية عـــنها في استانبول، وقد أحسست بذلك عمليا، ففي الإسكندرية ينضح جبين المرء بالعـــرق إذا سار قليلا في وهج الشمس، أما في استانبول فلم أجد هذا العرق، على الرغم من أنني سرت كثيرا تحت الشمس التركية، فالجفاف هو سيد الموقف.

غـــير أن أهـــم مـــا يفـــرق الإسكندرية عن استانبول، وخاصة في المجال الســـياحي، أن معظـــم البائعين في المحلات والعاملين في الفنادق ومكاتب السياحة والخدمات .. الخ، بل من أفراد الشعب العادي، يستطيعون أن يتفاهموا مع السائحين والأجانب والزوار، فقد كانت الإسكندرية مدينة كوزموبالتينية، منفتحة على الشرق والغرب، ويعيش فيها الكثير من الجاليات الأجنبية المتنوعة، وقد ورث معظم أبنائها الكثـــير مـــن صفات تلك المدينة. أما أهل استانبول فهم لا يعرفون فن التعامل مع الســـائحين والأجانب والزوّار، ولم يعرف معظمهم بعض اللغات التي تؤهلهم لهذا التعامل.

كنـــت أظـــن أنني في استانبول سأستطيع أن أحتسي فنجان القهوة التركية (تُركش كوفي) على أصوله، وأيضا سأدخن الشيشة أو النارجيلة على مقاهيها (مع

الاعـــتذار لجمعـــيات حماية البيئة، أو المحافظة على البيئة، ومع الاعتذار لعبارة (التدخيـــن ضـــار جـــدا بالصحة)، ولكن اكتشفت أن القهوة التركية المصنوعة في مقاهـــي الإســـكندرية أفضل بكثير من القهوة التركية في تركيا أو استانبول. أيضا اكتشـــفت أن معظم مقاهي استانبول لا تقدم النارجيلة، وأن هناك مقاهي معينة هي التي تقدم تلك الخدمة لمن يطلبها من زبائنها، وأن سعرها مرتفع جدا مقارنة بسعر كـــوب الشـــاي، أو فنجان القهوة، فسعر كوب الشاي أو فنجان القهوة ــ في فترة الزيارة ــ يتراوح بين نصف مليون ليرة، ومليوني ليرة تركية، تبعا لفخامة المقهى أو الكافتـــيريا أو المكـــان الذي يجلس فيه المرء، أما سعر النارجيلة فيتراوح بين أربعـــة ملاييـــن وثمانية ملايين ليرة للحجر الواحد من المعسل أو أوراق التفاح أو أوراق الخوخ، بينما في الإسكندرية، فسعر حجر الشيشة غالبا ما يكون نصف سعر كوب الشاي أو فنجان القهوة، أو أقل.

أيضا من أوجه الاختلاف بين المدينتين، مآذن الجوامع أو المساجد، فمآذن جوامـــع اســـتانبول، مـــثل: يني جامع، أو جامع السلطان أحمد، أو جامع لاله لي، وغـــيرها، أرفـــع بكثير من مآذن جوامع الإسكندرية مثل: المرسي أبو العباس، أو البوصيري، أو القائد إبراهيم، وغيرها.

الشيء الوحيد الذي ربما تتفوق به استانبول على الإسكندرية، هو المطاعم التركـــية، فالمطـــبخ التركـــي بأكلاته المتعددة والشهية، وحلوياته الرائعة، وأيضا أسعاره، أفضل بكثير من المطبخ السكندري، فالأتراك أساتذة في فن المطبخ، غير أننـــي لـــم أشـــعر بفارق كبير بين الجبنة الاستانبولي المصنوعة في الإسكندرية، والجبـــنة الاســـتانبولي المصنوعة في استانبول، فكلها جبنة بيضاء. أيضا لم أشعر بفارق كبير بين الجبنة التركي المصنوعة في تركيا، والجبنة التركي المصنوعة في مصر.

الأساطيرُ والعلومُ المؤسِّسة لمدينة استانبول

مدينة استانبول إحدى المدن العالمية الجميلة، بموقعها الفريد على بحر مرمرة، ومضيق البسفور الذي يطل على قارتي آسيا وأوربا، ويربط بين البحرين الأسود والمتوسط. وكأية مدينة قديمة تُحاك الأساطير حولها. حيكت حول مدينة استانبول العديد من الأساطير. حول تأسيسها أو اكتشافها، قبل بداية التاريخ.

★ الأساطير السريّة

وتاريخ مدينة استانبول (التي تقوم اليوم على موقع مدينة بيزنطة القديمة) يبدأ مع تأسيس الإمبراطوريات الكبيرة في آسيا وأوربا، ويعتبر عام ٦٦٠ قبل الميلاد عام تأسيس الدولة البيزنطية، هو عام تأسيس الأساطير السريَّة حول تلك المدينة، ففي هذه الآونة ذهب الماغاريون المقيمون بإحدى ضواحي مدينة أثنيا، إلى عرّاف مدينة دُلفي، وطلبوا منه أن يساعدهم في إيجاد مكان لأنفسهم تكون أرضه خصبةً، وماؤه غزيرًا، وهواؤه عذبًا، فأجابهم العرّاف بأن يذهبوا إلى المكان الواقع أمام مدينة العمياء، فهناك سيجدون أجمل وأروع الأماكن التي فيها الراحة غير الموجودة على سطح الأرض، وهناك سيصبح أطفالهم نشيطين، وسينعم الجميع بالصحة الجيدة.

وبالفعل غادر الماغاريون مدينة أثينا، وخرجوا متجهين إلى المكان الذي أشار إليه العرّاف. وبعد سفر طويل قضوا ليلتهم في مكان يسمى قاضي كول (وهو موجود حاليا في مدينة استانبول) وهو المكان المطل على سراي بورنو القريب من طوب كابي (إحدى القلاع الحصينة المطلة على البسفور).

وعند بزوغ الفجر لاحظ القوم مياه البوسفور ومرمرة المرتعشة والألوان الطبيعية الخلابة، فصرخوا قائلين: ها هو المكان الذي أشار له العرّاف، ولاشك أننا قضينا ليلة عمياء في هذا المكان، فلم نر هذا الجمال إلا صباحا (أو أن الناس

المقيمين في هذا المكان عمياء، لأنهم لم يروا هذا الجمال أو يقدروه)، ومن ثم تقدموا وسكنوا سراي بورنو، وجعلوا فيزاس حاكمـا عليهم، فتأسست بذلك إمبراطورية البيزنطيين.

★ النبي سليمان وابنة سلطان سيدون

أسطورة أخرى حول تأسيس مدينة استانبول ــ أو القسطنطينية ــ يعود تاريخها إلى عهد النبي سليمان الذي كان يحكم مخلوقات الدنيا، غير أن هناك شخصا يدعي سلطان سيدون يحكم جزيرة تسمى فراندوس، كان خارجا عليه، ولم يخضع له. وعندما ذهب إليه جنود سليمان طالبين منه الخضوع للملك النبي، أجابهم باستهزاء: ومن هو سليمان، وما يكون؟، إذا كان عنده جنود، فأنا بحوزتي جنود، فإذا أراد المجئ فليحسب ما سوف يراه ويجده.

ضحك سليمان لهذا العناد وأعطى أوامره لجنوده قائلا: اتحدوا أيها العفاريت والجان والذئاب والطيور المفترسة الموجودة على سطح الأرض، وسيروا فوق سيدون ولا تتركوا حجرة فوق الأخرى (أو حجرا فوق الآخر) على الجزيرة.

وعلى إثر ذلك هجم جيش سليمان على جزيرة فراندوس ونفذوا الأمر. فلم يبق مخلوق نجا من هذا الهجوم سوى السلطان سيدون، الذي أُسرت ابنته آلينا، وكانت آية في الجمال، وأُحضرت إلى النبي سليمان الذي لم ير جمالا من قبل في جمالها الرائع المسحور.

قال لها سليمان: يا أجمل الجميلات، لقد لقى والدك عقابه نتيجة جهله، وأنا وقعت في حبك، فالذنب ليس ذنبي، ألمري فلن أبخل عليك مهما كان طلبك.

قالت آلينا والدموع تذرف من عينيها: لم يعد في الدنيا أي أحد لي، ومن المستحيل أن يسليني أي شيء مهما كان.

قال سليمان: من الآن أنا تحت أمرك وخدمتك، اطلبي فأي أمنية تتمنيها سوف ألبيها لك.

ردت عليه قائلة: قلبي مجروح، فانشيءْ لي سراي في أجمل مكان في الدنيا، واحبسني فيها، عندها لا يسليني سوى الجمال الذي حولي.

فأمر سليمان مخلوقات الأرض قائلا: ابحثوا لي عن أجمل مكان على وجه الأرض، واعلموني به قبل أن يفوتنا الوقت.

وعلى الفور استعد واستنفر كل العفاريت والجان وجاءوا إلى سليمان قائلين: إن أجمل مكان في الدنيا هو المرتفع الذي يشرف على بحر البوسفور مع بحر مرمرة.

وكان هو المكان المطلوب والمعروف حاليا ب "سراي بورنو".

وعلى الفور أنشأ سليمان السراي قائلا: سيبقى المكان وإلى الأبد أجمل مكان في الدنيا.

هذا خبرٌ من كتاب "استانبول" ــ الصادر بأكثر من لغة ــ والذي أعده ناجي كسكين، وترجمه إلى عربية ركيكة (أعدتُ صياغتَها) توفيق جزماتي، وصدر عن شركة كسكين كلور المحدودة باستانبول.

* * *

★ استانبول في معجم البلدان

أما ياقوت الحموي (١١٧٨ ــ ١٢٢٨م) فيذكر القسطنطينية في معجم البلدان (وتسقط ياء النسبة أحيانا فيقال: قسطنطينــة) التي قال عنها ابن خرداذبــة (٨٢٠ ــ ٩١٣م): كانت رومية دار ملك الروم، وكان بها منهم تسعة عشر ملكا، ونزل بعمورية منهم ملكان، وعمورية دون الخليج، وبينها وبين القسطنطينية ستون ميلا، وملك بعدهما ملكان آخران برومية، ثم ملك أيضا برومية قسطنطين الأكبر، ثم انتقل إلى بزنطية، وبنى عليها سورا، وسماها قسطنطينية، وهي دار ملكهم إلى اليوم، واسمها اصطنبول، وهي دار ملك الروم. بينها وبين بلاد المسلمين البحر المالح (يقصد البحر المتوسط). عمَّرها ملك من ملوك الروم يقال له قسطنطين فسميت باسمه، والحكايات عن عظمها وحسنها كثيرة، ولها خليج من البحر يطيف

بها من وجهين مما يلي الشرق والشمال، وجانباها الغربي والجنوبي في البر، وسمك سورها الكبير أحد وعشرون ذراعا، وسمك الفصيل مما يلي البحر خمسة، بينها وبين البحر فرجة نحو خمسين ذراعا.

وذكر كذلك أن لها أبوابا كثيرة، نحو مائة باب، منها: باب الذهب، وهو حديد مموه بالذهب. وهي اليوم بيد الإفرنج غلب عليها الروم وملكوها.

★ ليست كسائر المدن

وقال بطليموس (المتوفي بعد ١٦١ م)عنها في كتاب "الملحمة": مدينة قسطنطينية طولها ست وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها ثلاث وأربعون درجة، وهي في الإقليم السادس، طالعها السرطان، ولها شركة في النسر الواقع ثلاث درج في منبر الكفة، والردف أيضا سبع درج، ولها في رأس الغول عرضه كله، وهي مدينة الحكمة لها تسع عشرة درجة من الحمل، بيت عاقبتها تسع درج من الميزان. وقال: وليست هذه المدينة كسائر المدن، لأن لها شركة في كواكب الشمال، ومن هاهنا صارت دار ملك، وقيل: طولها تسع وخمسون درجة ونصف وثلث، وعرضها خمس وأربعون درجة.

وقال عنها الرحالة العربي علي بن أبي بكر الهروي (المتوفي عـــام ١٢١٤م): ومن المناير العجيبة منارة قسطنطينية لأنها منارة موثقة بالرصاص والحديد والبُصرُم، وهي في الميدان إذا هبَّت عليها الرياح أمالتها شرقا وغربا وجنوبا وشمالا من أصل كرسيّها، ويُدخل الناس الخزف والجوز في خلل بنائها فتطحنه. وفي هذا الموضع منارة من النحاس، وقد قُلبت قطعة واحدة إلا أنها لا يُدخل إليها، ومنارة قريبة من البيمارستان قد أُلبسَتْ بالنحاس بأسرها وعليها قبر قسطنطين، وعلى قبره صورة فرس من نحاس، وعلى الفرس صورته وهو راكب على الفرس، وقوائم الفرس محكمة بالرصاص على الصخر، ما عدا يده اليمنى، فإنها سائبة في الهواء، كأنه رفعها ليشير. وقسطنطين على ظهر الفرس، ويده

اليمنى مرتفعة في الجو، وقد فتح كفه وهو يشير إلى بلاد الإسلام، ويده اليسرى فيها كُرَةٌ، وهذه المنارة تظهر عن مسيرة بعض يوم للراكب في البحر.

وقد اختلفت أقاويل الناس في هذه الكُرة، فمنهم من يقول إن في يده طلسما يمنع العدو من قصد البلد، ومنهم من يقول بل على الكرة مكتوب: ملكتُ الدنيا حتى بقيتْ بيدي مثل هذه الكرة، ثم خرجتُ منها هكذا لا أملك شيئا.

ويذكر التاريخ أن القسطنطينية كانت أكبر مدينة بأوربا في العصور الوسطى. ولم ينجح ممن حاولوا حصارها إلا ثلاثة: جيش الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤) وميخائيل الثامن (١٢٦١) والسلطان محمد الثاني ــ الفاتح (١٤٥٣). وقد كانت بها ثروة لا يكاد يتصورها العقل من الكنوز الفنية والأدبية، قبل أن تخرَّب في ١٢٠٤ و١٤٥٣. وحين سقطت في يد الأتراك كانت مدينة مهجورة تقريبا، ولكنها سرعان ما ازدهرت في ظل السلاطين، وأصبحت مركزا سياسيا وتجاريا عظيما في أوربا.

أما علم الجغرافيا فيقول: إن المدينة أقيمت على سبعة تلال على البوسفور، وأقيم حولها ثلاثة خطوط من الحصون.

* * *

★ تقوم على سبعة تلال متناثرة

وتقول الموسوعة العربية الميسرة عن استانبول: ولاية تقع شمال غرب تركيا، على ضفتي البسفور والبحر الأسود وبحر مرمرة، عاصمتها استانبول. تطل المدينة القديمة على القرن الذهبي. وكان الأباطرة البيزنطيون قد عملوا على توسيع رقعتها، وشيدوا حولها الأسوار المنيعة التي صمدت لهجمات غزاة كثيرين، منها ألكسيوس كومنينوس (١٠٨١) والصليبيون (١٢٠٤). فتحها الأتراك العثمانيون بقيادة محمد الفاتح (١٤٥٣) وظلت عاصمة الإمبراطورية العثمانية حتى عام ١٩٢٢ حينما نقلت الحكومة الكمالية الجمهورية (نسبة إلى كمال أتاتورك) العاصمة إلى أنقرة عام ١٩٢٣. احتلتها قوات الحلفاء (١٩١٨ ــ ١٩٢٣). وفيها خُلع آخر

سلاطين العثمانيين (١٩٢٢). بها جامعتان ترجع إحداهما إلى عام ١٤٥٣ وأعيد تنظيمها عام ١٩٣٣. وهي مقر بطاركة الروم والأرثوذكس واللاتين والكاثوليك الرومان والأرمن.

وتقوم استانبول وضواحيها على سبعة تلال متناثرة. وغلطة هو حي المدينة التجاري. ومن أحيائها بيره وهازكوي. ويربط جسر غلطة الواصل عبر القرن الذهبي قسمي المدينة.

وكان الحي اليوناني (الأوربي) يشغل القطاع الشمالي الغربي للمدينة. أما الجزء الآسيوي من استانبول فيشمل حي قاضي كوي (أو قاضي كول) واسكودار (سكوتاري).

وأهم آثار العصر البيزنطي هاجيا صوفيا (آيا صوفيا) وهو اليوم متحف هام، وخزان للمياه، وقناطر شامخة.

وتزخر استانبول بالعمائر الإسلامية من مساجد ومدارس وأضرحة ووكالات وأسبلة. ومن أهمها المسجد السليماني (١٥٥٠ ــ ١٥٥٧) وهو أجمل وأفخم مساجد استانبول، وقد شيد في عهد السلطان سليمان القانوني. ومسجد السلطان سليم ويعتبر منبره ومحرابه آيتين في فن النحت الإسلامي. ومسجد السلطان أحمد، وهو أعجوبة في فن العمارة العثمانية، وهو المسجد الفريد في تركيا الذي له ست مآذن، وفناؤه مغطى بالرخام، ويعرف أيضا بالمسجد الأزرق لأن جدرانه مغطاة بالقاشاني الأزرق والأخضر. ومسجد أبي أيوب الذي يتقاطر عليه الزوار من أنحاء العالم الإسلامي تبركا بضريح الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، الذي كان في حملة الخليفة يزيد بن معاوية (٦٧٠ م) واستشهد في أثناء القتال. والمسجد الجديد (يني جامع) الذي يرجع بناؤه إلى عام ١٥٩٧، ومسجد با يزيد الذي شيده المهندس التركي خير الدين (١٥٠١ ــ ١٥٠٥).

ومن مشاهد استانبول قصر توب كابي (الذي شيده السلطان محمد الفاتح عام ١٤٧٨ على مساحة ٧٠ ألف متر مربع، ويحتوي على ٤٠٠ غرفة، وحديقة

ضخمة لأشجار التين والجوز) والذي يضم مخلفات آل عثمان، وشتى كنوز الفن الإسلامي.

وباستانبول عدة متاحف للآثار القديمة. وهي تفخر بضواحيها الرائعة الجمال. وقد أعيد تخطيط القسم القديم من المدينة، وشقت فيه الطرق الفسيحة والميادين الكثيرة.

* * *

★ أمانات الرُّسُل

أما بنت بطوطة (أميرة خواسك) فتقول عن استانبول في كتابها "رحلات بنت بطوطة": القسطنطينية .. الآستانة .. إسلام بول (مركز الإسلام) أو استنبول .. أسماء لمدينة واحدة ترك عليها التاريخ بصمات بارزة في كل حقبة من حقبه، لتصبح متحفا ناطقا بكل ما شهدته هذه المدينة الجميلة من أمجاد وبطولات، وأيضا هزائم وانكسارات.

ومن أهم متاحفها، متحف أمانات الرسول الموجود في قصر طوب كابي (أو توب كابي)، حيث يقال إنه يضم أمانات الرسول، ومنها: بردة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وعصاه، ومكان لقدمه (الشريفة) بارز على الرخام، وسيوف الخلفاء الراشدين، ومفاتيح الكعبة، وسيف خالد بن الوليد وعمار بن ياسر، وعصا موسى، وسيف داود، وعمامة يوسف.

وتعتقد أميرة خواسك – ونعتقد معها – أن كل هذه ما هي إلا رموز لإلهاب مشاعر المسلمين، والسيطرة على العامة، والظهور بمظهر الحفاظ على الإسلام ومقدساته. وهي تعتبر كذلك من قبيل الأساطير المؤسّسة لمدينة استانبول، ذلك أن أحدا – كما تقول خواسك – لم يقل لنا كيف حصلوا على بردة الرسول (صلى الله عليه وسلم) عبر مئات السنين أو عصاه، أو حتى عصا موسى، أو عمامة يوسف إن كان يرتدي عمامة؛ والأكثر من ذلك كيف وضع الرسول (عليه الصلاة والسلام) قدمه على الرخام، فجعلها بصمة بارزة يقارب طولها نحو نصف المتر؟.

الترام القديم والإنترنت
و"بحر آخر" في استانبول

لم أجد شيئا مميزا أستطيع اقتناءه في استانبول، اللهم إلا نموذجا مصغرا لآيا صوفيا مصنوعا من الكريستال، لم أستطع شراءه لارتفاع سعره، فقد كان يباع بخمسة وخمسين مليون ليرة تركية. غير أنني اقتنيت طبقا نُحاسيا صغيرا مرسوما عليه آيا صوفيا بالألوان، كذكرى للزيارة.

عدا ذلك لم أجد سوى البضائع الأوربية، والملابس القطنية والكتانية العادية التي نجد كثيرا منها في جميع البلدان، ومعظمها كان موجودا في شارع الاستقلال بمنطقة تكسيم، ذلك الشارع الذي تسير فيه عربتا ترام قديمتان مُجددتان، على خط حديدي واحد، كنوع من إضفاء الطابع الفلكلوري على الشارع المكتظ بالمشاة الأتراك والأجانب. وقد أعد هذا الشارع الطويل للمشاة فقط، ولذلك الترام الفلكلوري الذي يقطع الشارع جيئة ورواحا. وقد ذكرني هذا الترام بترام الإسكندرية القديم الذي كان يسير في وسط البلد.

أيضا هناك شارع عثمان بك، الذي يعد من أهم الشوارع التجارية، فضلا عن أسواق أمين أونو (أمينانو) الشعبية وأسواق با يزيد، التي كنت أتوقع أن أرى فيه ملابس تركية فلكلورية، أي لها الطابع التركي المميز، غير أنني لم أجد أيضا شيئا من هذا.

* * *

إلى منطقة سريير، ذهبنا عن طريق إحدى البواخر التي تسير في مياه البسفور، وقضينا وقتا ممتعا هناك، فبعد أن ترجلنا من الباخرة وهبطنا أرض سريير طارت إلى أنوفنا رائحة الأسماك والجمبري، فالمطاعم هناك كثيرة وبأسعار في متناول اليد. داخل المنطقة رأينا البيوت التركية القديمة المصنوعة من

الأخشاب، كما شاهدنا بيوتا على الساحل بها جراجات للقوارب والمراكب الصغيرة، التي يملكها أصحاب تلك البيوت، وكأن القارب أو المركب سيارة لها جراجها الخاص أسفل البيت الخشبي.

أيضا كانت لنا جولة في منطقة قاضي كول، حيث تجولنا في شوارعها، وأحسسنا بأن أسعارها أفضل من مناطق أخرى في استانبول. هناك لاحظت يافطة على أحد البيوت، مكتوب عليها بالإنجليزية "مقهى إنترنت"، فاستأذنتُ من زملائي وصعدتُ إلى إحدى الشقق التي بها المقهى، وجلستُ أمام أحد أجهزة الكمبيوتر، وتصفحتُ بريدي الإلكتروني، وأرسلتُ منه رسائل لبعض الأصدقاء، غير أنني لاحظت أن بعض المواقع لا تفتح هناك مثل موقع "ميدل إيست أونلاين"، الذي لم يفتح على الإطلاق في استانبول، أيضا موقع "محيط" لم يفتح، ولم أدر السبب في ذلك، مع أن هناك مواقع أخرى بالعربية فتحتْ أبوابها لي، مثل موقع "مصراوي"، وموقع "جريدة الأهرام" الذي عرفت منه خبر وفاة الفنانة أمينة رزق، وبعض المواقع الأخرى.

سعر الساعة في ذلك المقهى كان مليون وثلاثمائة وخمسين ألف ليرة تركية، بينما في مناطق أخرى كان سعر الساعة مليوني ليرة.

في مقهى آخر بمنطقة تكسيم (الأوربية) وجدت إلى جواري إحدى الفتيات تفتح بريدها على موقع "مكتوب"، وكان باللغة العربية، ففرحتُ كثيرا وبدأتْ رحلة التعارف، وعرفتُ أنها من ليبيا، وأنها متزوجة من دبلوماسي ليبي يعمل بالقنصلية الليبية في استانبول. وحاولتُ - من خلال جهازها - فتح بعض المواقع التي كنتُ أريد متابعتها كميدل إيست أونلاين، ولكن كل التجارب فشلت. ثم اكتشفت أن الذي يجلس إلى جواري من الناحية الأخرى يشكو من عدم فتح موقع "هوتميل" الذي يحتوي على بريده الإلكتروني، وعندما سمعني أتحدث بالعربية، وأنني أشكو من عدم فتح بعض المواقع، شاركنا الحديث السريع، فكان شابا كويتيا يحاول أن يفتح بريده الإلكتروني على "هوتميل".وعندما فشل في ذلك انصرف ولم يدفع شيئا

للمشرف على المقهى، لأنه لم يمكث سوى خمس دقائق فاشلة. أما أنا فقد أكملتُ الساعة، ودفعتُ مليوني ليرة، بعد أن تجولتُ على بعض المواقع التي اقترحتها عليَّ زوجة الدبلوماسي الليبي التي تأتي كثيرا إلى هذا المقهى لتتابع بريدها الإلكتروني، ومواقعها المفضلة، وقد كتبتُ لها اسم موقع "ميدل إيست أونلاين" لتحاول الدخول عليه، إذا تيسر لها ذلك من أي مكان آخر، ووعدتني بذلك.

* * *

في شوارع استانبول وجدتُ بائعي الكتب القديمة يعرضون كتبهم على الأرصفة، ويباع الكتاب القديم بمليون ليرة تركية فقط. وعندما سألتهم عن وجود كتب عربية، لم أجد ردا، وبعدما ألقيت نظرة متفحصة على الكتب المعروضة أمامي، لم أجد أي كتاب عربي مفروش على الرصيف. كان معي نسخٌ من ديواني "بحرٌ آخر" المترجم إلى اللغة الفرنسية، فقلتُ أضع نسخةً أو نسختين على الرصيف إلى جوار تلك الكتب القديمة، ليس من أجله بيعها، ولكن من أجل عرضها، فإذا بيعت فثمنها لصاحب الفرش، وليس لي.

بصعوبة أفهمتُ أحد البائعين، فرفض الفكرة، ولم أيأس، فحاولت مع آخر، وتدخل زميلي حسن الأشقر بالشرح، وأفهمناه أن ما بداخل الكتاب شعر عربي له ترجمة إلى اللغة الفرنسية بداخل الكتاب نفسه، وقمنا باستغلال اسم الشاعر التركي المعروف ناظم حكمت على سبيل المثال، ليفهم الرجل ما نعنيه، أو نقرب إليه ما نريده، فوافق على عرضه على الرصيف إلى جوار بقية كتبه، دون الرجوع إليه بمطالبة مالية في حالة البيع.

تُرى هل اشتراه أحد ؟

زيارة إلى مبنى الحكمة المقدّسة

(آيـا صوفيـا)

ترددتُ كثيرا في دخول مبنى الحكمة المقدسة (آيا صوفيا) باستانبول، بسبب ارتفاع رسم دخوله (١٥ مليون ليرة تركية) أي ما يعادل حوالي أحد عشر دولارا أمريكيا، أو عشرة يورو، أو أكثر من خمسة وستين جنيها مصريا. ولكن عندما سألتني سائحة أمريكية ــ وأنا في منطقة أمين أونو ــ عن المكان الذي يقع فيه آيا صوفيا، وكيف تذهب إليه، فسألتُ بدوري إلى أن عرفت مكانه وكيفية الوصول إليه من المنطقة التي كنا فيها، وبالتالي شرحتُ لها كيف تصل إليه عن طريق الترام أو المترو. عندها أعدتُ التفكير في الأمر.

قلتُ لنفسي: هل يُعقل أن يأتي الأمريكان لاستانبول ليشاهدوا آيا صوفيا، وأتعلل أنا بارتفاع رسم دخوله، وصممتُ على دخوله مهما كان رسم الدخول الذي زاد خمسة ملايين ليرة عن العام الماضي كما قيل لي. فآيا صوفيا في استانبول مثله مثل متحف اللوفر في باريس، أو برج بيزا في إيطاليا، أو قلعة صلاح الدين في القاهرة، أو قلعة قايتباي في الإسكندرية، أي من معالم الزيارة الرئيسية، ولهذا السبب يُغالي الأتراك في رسم دخوله.

ذهبتُ في صباح اليوم التالي لآيا صوفيا، المواجه لمسجد السلطان أحمد أو الجامع الأزرق ذي المآذن الست. وقفتُ في طابور ليس طويلا (ربما يحجم الكثيرون عن دخوله بسبب هذا الارتفاع في رسم الدخول). ودخلتُ مبنى الحكمة المقدسة أو الكنيسة التي تحولت إلى مسجد في عهد محمد الفاتح، ثم تحوّل المسجد إلى مركز أو متحف يجمع بين الشكلين المسيحي والإسلامي، بأمر من كمال أتاتورك (١٨٨٠ ــ ١٩٣٨).

لقد شُيد هذا المبنى الكبير، الذي يُعد أعظم نموذج للفن المعماري البيزنطي، في البداية على مرحلتين، الأولى شيدها الإمبراطور قسطنطين الثاني (عام ٣٦٠ م) ثم احترقت، والمرحلة الثانية شيدها الإمبراطور ثيودسيوس الثاني (عام ٤١٥م) ودمرتها النيران أيضا عام ٥٣٢م.

ثم قام الإمبراطور البيزنطي جوستيانوس أو جوستنيان الذي قدم إلى القسطنطينية حوالي عام ٥٦٠ ميلاديا على عربة يشدها ١٤ حصانا، وقرر إعادة تشييد هذه الكنيسة أو هذا النصب التذكاري ــ الموجود حاليا ــ على مساحة قدرها ٨١ × ٧٠ مترا (٥٦٧٠ مترا مربعا) وعندما فتح استانبول السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣ م نزل من على حصانه ودخل الكنيسة وهناك صلى أول صلاة جمعة، ثم أضاف إلى المبنى أربع مآذن رفيعة، فتحولت الكنيسة إلى جامع أو مسجد.

ويجمع المكان الآن بين صور كثيرة ولوحات جدارية من الفسيفساء للسيد المسيح عليه السلام والسيدة مريم، وآيات قرآنية منقوشة على الجدران، ولوحات كبيرة معلقة تحمل اسم الله ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وأسماء الخلفاء الأربعة (أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب).

في إحدى اللوحات الجدارية المطرزة بالذهب والفسيفساء الموجودة بمدخل المتحف من القرن العاشر الميلادي، على سبيل المثال، نرى الأم مريم وهي تحمل السيد المسيح عيسى عليه السلام، وعلى يمينها يقف الإمبراطور قسطنطين الكبير، وبيده مخطط القسطنطينية أو استانبول، وعلى يسارها يقف الإمبراطور جوستنيان وبيده نموذج بيت الحكمة المقدسة أو آيا صوفيا، وهما يقدمانه للسيدة مريم العذراء.

هناك لوحات أيضا للإمبراطورة زوا والإمبراطور مونوماكوس يقفان إلى جوار صورة للسيدة مريم وهي تحمل السيد المسيح في طفولته.

وتتكرر صور ولوحات السيدة مريم العذراء وهي تحمل السيد المسيح عندما كان طفلا، كثيرا في متحف آيا صوفيا.

إن المظهر المسيحي والمظهر الإسلامي يتحدان في آيا صوفيا الذي ظل ٩٢١ سنة، يُستخدم ككنيسة، و٤٨١ سنة، يُستخدم كمسجد، إلى أن أمر كمال أتاتورك بجعله متحفا أثريا، كما نراه اليوم، يفد إليه السائحون والزوّار من كل مكان.

جدير بالذكر أن القبة الرئيسية لآيا صوفيا يبلغ قطرها ٣١ مترا مقامة على أربعة عواميد أو أرجل رخامية ضخمة، مثل أرجل الفيل، يبعد ارتفاعها عن الأرض ٥٦,٥ م، وطولها ٢٤,٣ م. ويبلغ عدد نوافذها أربعين نافذة مقوسة.

والمسجد أو المتحف مغطى من الداخل بالرخام الملون والفسيفساء المذهبة، وأصبح مثالا لعمارة المساجد التركية العظيمة التي شيدت في استانبول بعد ذلك.

* * *

في الجهة المقابلة لآيا صوفيا ـ وعلى بعد أمتار قليلة ـ يوجد مسجد أو جامع السلطان أحمد الأول بمآذنه الست، وصحنه الكبير الذي يسبق المسجد، والذي أراد ببنائه أن ينافس آيا صوفيا، وأن يترك أثرا أرفع وأعلى منه، فأمر كبير المعماريين (المهندس محمد أغا) بأن يشيد مسجدا تكون مآذنه من معدن الذهب الخالص، ولما كان من المستحيل أن ينفذ المعماري ذلك، فقد تلاعب بالألفاظ حيث إن كلمة الذهب (الطن) تقترب في نطقها من الستة (الطي) وعلى ذلك شيد المسجد فيما بين عامي ١٦٠٩ ـ ١٦١٦م بمآذنه الست، وليست من الذهب، وخرج المسجد على أروع صورة مما جعل سلطان العثمانيين سعيد راضيا عنه. وقد بلغ الطول الداخلي للمسجد ٦٤م، وعرضه ٧٢ م، ونوافذه تزيد على ٢٦٠ نافذة، وعلى حوائطه يوجد الخزف الصيني الأزرق والأخضر المنوّع، ويبلغ عدد قطع الخزف المركبة على حوائطه ٢١٠٤٣ قطعة. لذا يطلق على هذا المسجد أو الجامع، المسجد أو الجامع الأزرق أحيانا.

ودخول هذا المسجد بالمجان، وأعتقد أنه المكان الوحيد الذي يدخله الناس بالمجان في استانبول.

تركيا الحائرة

بين قوميتها والانفتاح على العالم

كنت أعتقد أن أهل تركيا، وخاصة استانبول (القسطنطينية، والآستانة أو الباب العالي سابقا)، يعرفون قليلا من العربية، لعدة أسباب منها أن المسلمين يشكلون نسبة ٩٨% تقريبا من عدد السكان، والمسيحيين ٢%. وأن القرآن والأحاديث النبوية الشريفة تُتلى باللغة العربية في الصلوات الخمس اليومية، وأن القسطنطينية ظلت لعدة قرون عاصمة الخلافة الإسلامية أو الإمبراطورية العثمانية (منذ أن فتحها الترك العثمانيون بقيادة محمد الفاتح عام ١٤٥٣ وحتى عام ١٩٢٢ عندما انتقلت العاصمة إلى أنقرة)، وأن الأتراك الذين كانوا يقيمون في مصر، وبعض البلاد العربية الأخرى ـ ويسافرون إلى استانبول بصفة دائمة ـ كانوا يتحدثون العربية (بلكنة تركية)، وغيرها من العوامل التي جعلتني أعتقد أن الكثير من الأتراك يتحدثون القليل من العربية.

ولكن في زيارتي إلى استانبول لم أجد أحدا يتحدث العربية، اللهم إلا الذين أُتيحت لهم فرصة العمل في بلاد الخليج العربي، أو الذين عاشوا لفترة في سوريا ولبنان.

عدا هؤلاء لم أجد أحدا يتحدث العربية.

وقد تعجبت كثيرا – ومن معي – لهذا الأمر.

صلينا الجمعة – أنا وصديق الرحلة حسن الأشقر – بعد أن توضأنا بمائتين وخمسين ألف ليرة (نعم، ربع مليون ليرة) – في مسجد يني جامع (أي الجامع الجديد) الذي باشرت بناءه السلطانة صفية (زوجة مراد الثالث) عام ١٥٩٨، بمنطقة أمين اونو (أو أمينانو) التجارية، والمطل على جسر غلطة (أو جلطة) والقرن

الذهبـــي (جولدن هورن) أو ذراع البسفور، والمجاور لجامع السليمانية أو المسجد السليماني الذي شيده سليمان القانوني فيما بين عامي ١٥٥٠ ــ ١٥٥٧.

دخلـــنا الجامع مبكرا بعد أن وضعنا أحذيتنا في كيس بلاستيك، اصطحبناه معـــنا داخـــل الجـــامع، فوجدنا أحد الدعاة يتلو درسا دينيا لم نفهم منه شيئا، سوى الأدعية والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي يستشهد بها الرجل في حديثه.

ثم رُفع آذان الجمعة، وصلينا صلاة السُنة، ثم صعد الخطيب منبر الجامع، وبدأ بالدعاء والآيات القرآنية والأحاديث النبوية باللغة العربية، ثم بدأ يخطب خطبة الجمعـــة بالتركـــية التـــي لم نفهم منها شيئا، ثم أقيمت الصلاة باللغة العربية. وبعد الانـــتهاء صافحتُ من يجلس بجواري على اليمين واليسار، وإذا بهما يسلمان عليَّ ســـلاما حـــارا، وكأنـنـــي سأبدأ حديثا معهما، ولم أجد أحدا من الأتراك يصافح من يجلس على يمينه ويساره، مثلما فعلت.

أخـــذت كيس حذائي وخرجت، ثم أخرجت الحذاء، ووضعت الكيس الفارغ في مكانه المخصَّص بالصندوق الكبير.

توجهنا بعد ذلك إلى السوق التجاري بأمين أونو، وتجادلنا مع البائعين في أسعار مشترواتنا، واكتشفت أن الدواوين الحكومية والمصالح والشركات والدولة كلها تعمل يوم الجمعة عملا عاديا، وأن الأجازة أو الراحة الأسبوعية للموظفين والدولة تكون يومي السبت والأحد، وليس الجمعة مثل معظم الدول الإسلامية.

عرفت بعد ذلك أن هذه كانت تعليمات مصطفى كمال، أو كمال أتاتورك ــ أي أبو الأتراك ــ (١٨٨٠ ــ ١٩٣٨) الذي يلقبه البعض بـــ "مُنقذ الشعب التركي"، والذي ألغى الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ وفصل بين الدولة والدين، وألغى الامتيازات الأجنبية، واستخدام الطربوش والعمامة، وارتداء الحجاب، وجعل القانون المدني يقوم على أصول التشريعات الأوربية، بدلا من الشريعة الإسلامية.

اكتشفت أثناء رحلة المشتروات أن البائعين أيضا لا يعرفون شيئا من العربية أو الإنجليزية، فكان التفاهم معهم - بعد لغة الإشارة - عن طريق الآلة الحاسبة، أو الورقة الصغيرة البيضاء، فعندما يعجبنا شيء نريدُ شراءه نقول لهم

بأكثر من لغة: ما سعره؟، فلا يفهمون شيئا، ولانفهم من كلامهم شيئا، ولكنهم يأتون بآلة حاسبة أو ورقة صغيرة بيضاء. يكتبون فيها السعر، فنرد عليهم بالطريقة نفسها، مقللين - بالطبع - من الرقم المكتوب، إلى أن نصل إلى حل وسط، أو ننصرف دون أن نشتري شيئا.

لم أدرِ أية نهضة سياحية تتطلع إليها تركيا الآن، دون أن يتعلم شعبها - وخاصة الذين يتعاملون مع الغرباء أو الزوّار والسائحين في الفنادق والأسواق والمكاتب السياحية، وغيرها، أكثر من لغة، وأعتقد أن شعبا مسلما مثل شعب تركيا، لابد أن يتعلم اللغة العربية والإنجليزية إلى جانب لغته الأساسية، فالعربية - كما سبق القول - لغة القرآن والأحاديث التي ينطقها الشعب أثناء صلاته، والعربية أيضا لغة الزوّار والسائحين العرب الذين يتطلعون لزيارة تركيا وخاصة استانبول وبورصا وأنطاليا وأزمير وأنقرة وغيرها من المدن التي تتمتع بطبيعة رائعة خلابة، وبحار مفتوحة على بعضها البعض (البحر المتوسط، والبحر الأسود، ومضيق البسفور والدردنيل، وبحر مرمرة، وبحر إيجه، ..). فعدد الزوّار والسائحين العرب الذين يذهبون إلى تركيا، وخاصة استانبول، في تزايد مستمر، وقد رأيت بنفسي عشرات السعوديين والكويتيين وبقية أبناء الخليج، يرتادون الشوارع التجارية الكبرى في استانبول مثل شارع الاستقلال وشارع عثمان بك، وغيرهما، وقد تحدثت مع بعضهم، فكانت الشكوى عامة من صعوبة التفاهم مع الشعب التركي.

قال لي أحدهم: إن العثور على شخص تركي يتحدث العربية أو الإنجليزية يعد بمثابة الفاكهة في هذه الرحلة.

أيضا من الشكاوى أو الملاحظات العامة على الشعب التركي أنه سريع الانفعال والغضب، مع بعضه البعض، وأيضا مع الزوّار والغرباء، وهذا بالطبع يُعدُّ ضربة للسياحة الواعدة في تركيا. وعلى الشعب التركي أن يعالج هذه المسألة وخاصة في المدن التي يتردد عليها السائحون.

قال لي سائق تاكسي سوري الأصل، ومتزوج من سورية: إن تدريس اللغة الإنجليزية في المدارس لا يتعدى ساعة واحدة في الأسبوع. فقلت له: إن أساسيات

الإنجليزية، كالأرقام مثلا غير متوافرة لدى الكثيرين ممن قابلتهم. فقال لي: ربما يكونون قد ألغوا الإنجليزية مؤخرا، أو اعتبروها مادة غير أساسية، أي لا نجاح فيها ولا رسوب، وبالتالي يهملها الطلاب في مذاكراتهم.

أجبت: إن التعليم في المدارس ليس هو الأساس في تلك المسألة، وضربتُ له مثلا بأهل مدينتي الأقصر وأسوان في مصر الذي يتعاملون مع معظم السائحين الأجانب، وبعضهم يعرف أو يتحدث أكثر من ست أو سبع لغات (وليس شرطا إجادة كتابتها). بل أن من بين أهل الأقصر وأسوان مَنْ لم يدخل المدرسة، ومع ذلك يتحدثون بأكثر من لغة، وبعضهم تزوج من أجنبيات مكثن في مصر بعد التفاهم معهن بلسانهن. إذن فالمسألة ليست مرتبطة بالتعليم والمدارس.

قال لي السائق السوري: إن من أهم توجهات حكومة أتاتورك، كان وضع أساسيات لغة تركية جديدة تُكتب بالأحرف اللاتينية، ومن اليسار إلى اليمين، وليس بالأحرف العربية التي تُكتب مثل العبرية أو الفارسية أو الأردية من اليمين إلى اليسار، فاشتُقَّتْ هذه اللغة التي يكتبها ويتكلمها الأتراك الآن. وحتى يجيد الشعب التركي لغته القومية الجديدة، ربما مُنع من التعامل بلغات أوربية أو آسيوية أخرى، اللهم إلا في الأوساط الدبلوماسية والإعلامية. وكانت النتيجة ما يحدث الآن. لقد حاول أتاتورك التحرر من كل سيطرة أوربية على تركيا، فبدأ بعدم استخدام لغاتهم داخل البلاد.

قلتُ له: تفسير معقول.

شكرتُ السائق السوري الأصل الذي أطلعني على بعض خبايا الأتراك، وجعلني أشاهد استاد نادي بشكتاش الذي يلعب فيه اللاعب المصري المحترف أحمد حسن صاحب الشعبية الضخمة في استانبول، ونزلتُ من التاكسي أمام الفندق الذي أقيم به بحي جيهان جير (بالقرب من منطقة تاكسيم أو تكسيم)، في استانبول الأوربية، وقلت في نفسي إن لغة الكرة هي أقرب طريق الآن إلى توحيد الشعوب، والاتفاق على لاعب جيد ومشهور، أكثر من الاتفاق على رؤساء الدول والملوك الآن.

بورصا

مدينة التلفريك والحرير الطبيعي

تقع مرتفعات وجبال وغابات مدينة بورصا ــ أو بورصة، أو بروسة ــ التركية على ارتفاع أكثر من ١٦٥٠ مترا فوق سطح البحر، والوصول إليها يكون عن طريق التلفريك الذي يتسع لأكثر من عشرين شخصا. وتلفريك مدينة بورصا يمر صعودا بثلاث مراحل، وركوبه في حد ذاته متعة من متع الرحلات إلى تركيا.

المرحلة الأولى عادة لا يترجل فيها الركاب، حيث لا يوجد فيها سوى أرض صغيرة ممهدة أو منبسطة، ولكنها غير مكتملة الخدمات. أما المرحلة الثانية فهي الأكثر ترجلا، لوجود خدمات المطاعم ــ على هذا العلو الشاهق ــ والاستراحات، وألعاب الأطفال، ومساحات كبيرة من الأراضي المنبسطة التي يستطيع الشباب أن يلعبوا فيها مباريات كرة القدم، دون التعثر في أية نتوءات.

أما المرحلة الثالثة لصعود التلفريك، فهي لا تُستغل إلا شتاءً حيث مناطق التزحلق على الجليد التي شُذبت ــ أو قُطعتْ ــ فيها الأشجار الضخمة التي قد تعوق رياضة أو هواية التزحلق على الجليد. لذا فإننا لم نصعد لهذه المرحلة (لكون الجو صيفا، ولا يوجد جليد، من ناحية، ومن ناحية أخرى أنني لم أعرف كيف التزحلق على الجليد، حتى وإن كان موجودا)، واكتفينا بالتوقف في المرحلة الثانية، وكانت درجة الحرارة وقتها عشر درجات مئوية في منتصف النهار، الأمر الذي جعلنا نجري كثيرا في المكان طلبا للتدفئة، بعد أن تناولنا وجبة من اللحم المشوي، قمنا بشيه بأنفسنا حيث يوجد شواية فحم يدوية بجوار كل مائدة طعام بالمطاعم المنتشرة هناك.

وعلى الرغم من ذلك لم نستطع البقاء طويلا فوق الجبال والمرتفعات والغابات، فقد كنا نرتدي ملابس صيفية خفيفة جدا، لم يُجد معها الجري في المكان.

وبدأت رحلة الهبوط بالتلفريك، التي لم تكن مزدحمة مثل رحلة الصعود. لذا فإننا هبطنا سريعا إلى قلب المدينة مرة أخرى.

الرحلة من استانبول إلى مدينة بورصا تتراوح بين ساعتين ونصف وثلاث ساعات، عبرنا خلالها بحر مرمرة من أوربا إلى آسيا، عن طريق الأتوبيس، ثم العبَّارة، ثم الأتوبيس مرة أخرى. وعندما وصلنا إلى بورصا هبطنا في محطة الأتوبيس الرئيسية التي تشبه إجراءات الخروج منها بإجراءات الخروج من المطارات الصغيرة. وبعد أن خرجنا من تلك المحطة، ركبنا أتوبيسا آخر داخليا، شاهدنا من خلال نوافذه شوارع مدينة بورصا الجميلة وأزقتها النظيفة، إلى أن وصلنا إلى محطة التلفريك لنصعد به.

وخلال رحلتي الصعود والهبوط شاهدنا المراعي الطبيعية ــ بتدرجاتها المختلفة ــ التي ترعى فيها الأبقار والخراف، وبعض الحيوانات الأخرى.

بعد تناول وجبة المشويات عرفتُ لماذا كان اللحم جيدا، والألبان طازجة. فالسبب وجود هذه المراعي الطبيعية على الجبال والمرتفعات، التي يعيش عليها الحيوان حياة طبيعية لا مجال فيها للتلوث أو أكل الأعلاف المصنَّعة من الدم والفضلات التي ربما تسبب الأمراض الخطيرة، وتغيِّر من طعم المأكولات.

هبطنا إلى المدينة، وتجولنا فيها، وشاهدنا محلات الحرير الطبيعي، والبعض ذهب إلى مصانعه المنتشرة في بورصا. والسبب في انتشار الحرير الطبيعي في هذه المدينة يرجع إلى كثرة أشجار وأوراق التوت التي تتغذى عليها ديدان القز التي تفرز خيوط الحرير بكميات كبيرة جدا، أو بكميات تجارية.

وقد لاحظت أن أهل مدينة بورصا يحتفلون بالزوّار والسائحين أكثر من أهل مدينة استانبول. فقد كنا نتفاهم مع إحدى البائعات حول ثمن قطعة قماش من الحرير الطبيعي، ولم تكن البائعة تفهمنا بسهولة، فتقدمت إحدى السيدات الجميلات لتتحدث معنا بالإنجليزية وتنقل للبائعة ما نريده بالتركية، ثم تترجم لنا كلام البائعة، وهكذا تطوعت السيدة الجميلة بمهمة الترجمة، وبمهمة إبعاد الشحاذين الذين

ينتشرون حول الغرباء والسائحين، ولم تشأ أن تتركنا طوال فترة بقائنا في سوق الحرير الطبيعي، إلى أن تأكدت أننا حصلنا على ما نريد بالسعر المناسب لكل واحد فينا. بل إنها كانت تود ضيافتنا على الشاي التركي أو القهو التركية في إحدى الكافتيريات، ولكننا شكرناها على تعبها معنا، وانصرفت وهي سعيدة للغاية، وكذلك نحن.

أيضا عندما قام زميلنا ناجي عابدين (وكان مديرا لأحد الفنادق الكبيرة في مصر) بمحاسبة العاملين في الكافتيريا على وجبة المشويات، أتضح أن هناك خطأ في الحساب، بسبب نطق الأرقام أو سماعها، فقد نطق أحد العاملين بالكافتيريا رقم ١٨ مليونا بالإنجليزية، وسمعناه على أنه ٨ ملايين فقلنا: حسنا. وبعد الغذاء، جمعنا المبلغ اللازم وقام زميلنا بدفع الحساب، فقال له الرجل إن المبلغ ١٨ مليونا وليس ٨ ملايين، بعد أن نطق الرقم حرفا حرفا. ولما أكدنا له أننا كلنا سمعنا الرقم ٨ وليس ١٨، وكادت أن تحدث مشكلة معه، حضر صاحب الكافتيريا وشرحنا له الموضوع، فقام بمنحنا خصما كبيرا وهبط الرقم من ١٨ إلى ١٤ مليونا، ثم عاتب عامله على عدم النطق الصحيح للأرقام، مما يحدث معه التباس في الأمر كما حدث معنا بالفعل.

هذان النموذجان لم نقابل مثلهما في استانبول، على الرغم من بقائنا ثمانية أيام فيها. فالكل مشغول في استانبول، مثلها مثل أية مدينة كبيرة مشغولة بنفسها، ولكن الفارق أن استانبول لم تتأهب بعدُ لاستقبال زوارها والغرباء عنها. معتمدة في ذلك على أنها كانت في يوم من الأيام عاصمة الأتراك العثمانيين، وعاصمة الخلافة الإسلامية، فكيف تتباسط أو تتنازل لتستقبل سائحا أو غريبا عنها، على عكس الناس في بورصا الذين يشعرون بسعادة حقيقية بالزوار والأجانب والمغتربين.

ولكني أود أن أذكِّر استانبول أن بورصا أيضا كانتْ عاصمة الأتراك العثمانيين بعد أن استولى عليها الإمبراطور أورخان عام ١٣٢٦ وظلت كذلك حتى عام ١٤٢٣، وقد خرَّبها تيمور لنك عام ١٤٠٢، بعد انتصاره على با يزيد، ولكن ها

هي تعود مرة أخرى إلى جمالها وأناقتها، وخاصة بعد إدخال التلفريك بها لتكون من المدن التركية المميزة التي تحتوي على المساجد الرائعة، ومدافن بعض السلاطين الأتراك المتقدمين.

وبمناسبة التلفريك تقول الموسوعة العربية الميسرة عنه: إنه وسيلة لنقل الناس بوساطة مركبات هوائية، معلقة في أسلاك للجر، وأخرى للحمل. ترتكز على قوائم من الصلب. تبنى محطتا القيام والوصول من بناء خرساني مسلح، الأولى تثبت عليها الأدوات الميكانيكية، وفيها الأجهزة الأوتوماتيكية لشد الأسلاك والأجهزة الأوتوماتيكية لتثبيت وفك العربات، وتقع كل محطة فوق مرتفع عال، أو إحداهما على مرتفع والأخرى على الأرض.

عندما أراد أحد الشباب في رحلة صعود التلفريك بين الأرض والسماء، أن يتحدث عن الحوادث التي من الممكن أن تقع من جراء استخدام هذه الوسيلة للانتقال، صرخت مجموعة من السيدات في وجهه، فابتسم، وسكت عن الكلام، وعندما نظرتُ إليه غمز لي بعينه، عندها أدركت أنه كان يريد استثارة الركاب ليس إلا، ونجح في ذلك.


الرحلة البلغارية

أيامٌ في فارنا

من شرفة الغرفة رقم ٣٠٦ أستطيع أن أطل على مدينة فارنا وبحرها الأسود الساحر، وجبالها الخضراء المعشوشبة، وأن أتلصص على جيراني اليابانيين والصينيين والكوريين والهنود والروس والأتراك والألمان، وغيرهم من الجنسيات المختلفة التي تشغى بها شوارع وفنادق مدينة فارنا في هذا التوقيت من العام.

من الشرفة أيضا أطل على أحد المطاعم الأمريكية المنتشرة في أنحاء العالم الآن.

فالبلغار وهم في طريقهم إلى التخلص من الشيوعية، أدخلوا سلسلة هذه المطاعم في بلادهم، لإثبات حسن نيتهم مع الأمريكان.

* * *

صوت الختم البلغاري

في مطار فارنا الصغير فوجئنا بتعقيد إجراءات الدخول أو المرور من الجوازات البلغارية، ومكث كل واحد منا أكثر من ثلث ساعة أمام ضابط الجوازات، فقال أحدنا: إنها بقايا الشيوعية، لا تزال تتحكم في درجة إيقاع ورائحة موظفي الجوازات والجنسية.

فقلت له: يبدو إنها إجراءات عادية، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

بعد انتهاء مراسم الدخول، وسماع صوت الختم البلغاري على أوراق جواز مرور كل منا، سألتنا إحدى الموظفات البيضاوات المتوسطات القامة، عن كمّ العملة التي نحملها.

أخرجتُ لها من جيبي بضع مئات من الدولارات، بينما قال لها صديق الرحلة حسن الأشقر إنه يحمل في جيبه ٨٥٠ يورو فابتسمتْ، ولم تطلب منه أن يُخرج المبلغ لتراه.

* * *

تتمتع مدينة فارنا (التي أُسست باسم أوديسيس بصفتها مستعمرة يونانية، في القرن السادس قبل الميلاد) بجمال طبيعي أخّاذ، فهي تقع على البحر الأسود مباشرة، وتحيط بها الجبال الخضراء من نواح كثيرة، وجوها معتدل صيفا، لا يحتاج المرء فيه إلى أجهزة تبريد أو تكييف. ولكن بالتأكيد في الشتاء يحتاج أهلها إلى أجهزة تدفئة، حيث تحوم درجة الحرارة حول الصفر صعودا وهبوطا.

عندما سألت عن صلاحية المياه للشرب، قيل لنا إن مياه الصنبور بالفندق صالحة تماما للشرب، والسبب أنه يوجد أنهار كبيرة وصغيرة تجري في بلغاريا (مثل الدانوب، ومارتيزا، وستورما) فضلا عن مياه الأمطار الكثيفة التي تُستغل في زراعة الحبوب والطباق والورد، وفي مياه الشرب، وعلى الرغم من ذلك فقد كان بعضنا يحمل زجاجات مياه معدنية في غدوه ورواحه.

* * *

عاصفتان رعديتان وسط الشمس البلغارية

هبت عاصفتان رعديتان ممطرتان أثناء وجودنا هناك.

الأولى كانت في حوالي الساعة الثالثة عصرا، حيث أظلمت السماء فجأة، وانفجر المطر، وأبرق الرعد، وجرت سيول المياه في الشوارع، ودخلت المحلات والشرفات، وتوقفت عند الأعتاب المرتفعة، وتعطلت بعض السيارات عن السير. وهرب الناس من الشواطئ، واستخدموا شماسي البحر، مظلات للوقاية من المطر المنهمر بعنف. وعلى الرغم من ذلك ظلت الفتيات بملابسهن شبه العارية يجرين من أمام الشاطئ، وظل الشباب على حاله يدخن بشراهة.

يبعث هذا المطر في النفس نوعا من التأمل في أحوال الطبيعة التي تكشّر عن أنيابها فجأة، لترهب الإنسان، كما تبعث كثافة الغيوم وسوادها في السماء نوعا من الاكتئاب والانقلاب النفسي، خاصة للمصيفين الذي كانوا يقضون أوقاتا من اللهو والمتعة على شواطئ البحار.

بعد حوالي ثلاث ساعات هدأت العاصفة الرعدية، وبدأ الطقس يعود تدريجيا إلى سابق عهده، غير أن الشوارع كانت قد امتلأت بأغصان الأشجار وفروعها وأوراقها، وتشققت بعض الطبقات الإسفلتية، وسقطت بعض الأكشاك الخشبية، وجرت المياه إلى مخابئها، وعادت السيارات المعطلة إلى العمل، وأخيرا سطعت الشمس البلغارية مرة أخرى.

العاصفة الثانية قرأتُ خبرا عنها صباحا في شريط الأخبار بمحطة سي إن إن التلفازية.

كان الخبر يقول: عواصف رعدية تعبر (أو تجتاح) أوربا الشرقية.

قلت لصديق الرحلة حسن الأشقر اليوم ستهب عاصفة أخرى على فارنا، وبالفعل بعد ساعات قليلة جاءت العاصفة، ولكنها كانت أقل عنفا من سابقتها. فلم تدم طويلا، وأمطارها لم تكن غزيرة. فحمدنا الله وخرجنا إلى شوارع فارنا، وجلسنا على المقهى المفضل لنا بجوار الفندق.

* * *

الكتّاب والنقاب

إلى جوار المقهى توجد بائعة كتب تفرش كتبها القديمة – بعد تغليفها بأكياس البلاستيك – على الرصيف. لم أجد عندها أي كتاب باللغة العربية، وكل الكتب كانت إما باللغة البلغارية أو الروسية، وقليلة هي الكتب الإنجليزية أو الفرنسية.

أخذت أتأمل العلاقة بين اللغتين البلغارية والروسية عن طريق تقارب أشكال حروفهما، فالأصل واحد، هو السلافية، ولكن أرجعت ذلك أيضا إلى العلاقة السابقة بين الاتحاد السوفيتي وبلغاريا الشيوعية، لدرجة أن تحول اسم فارنا إلى ستالين، بمناسبة عيد ستالين السبعين في عام ١٩٤٩، ولكن سرعان ما زال اسم ستالين من على وجه المدينة، وظل اسم فارنا على الألسنة.

ولعل أكثر الزوار والسياح في تلك المدينة كانوا من الروس، وخاصة اليهود الروس الذين قابلنا أفواجا كثيرة منهم في الفندق وفي الشوارع والشواطئ والمقاهي القريبة منه.

أما العرب، وخاصة عرب الخليج، فعددهم قليل جدا، لا يقارن بعددهم في مدينة استانبول على سبيل المثال.

كانت هناك امرأة منقبة تسكن مع عائلتها في الفندق نفسه، كانت محط أنظار جميع النساء والرجال والأطفال، في الفندق والشارع، وكأنهم لم يروا امرأة ذات نقاب أسود من قبل. ونظراتهم كانت تجمع بين الاستياء والدهشة والغضب.

ومثلما ينظر المرء إلى امرأة عارية في مدينة محافظة، فيستنكر عُريها، ويدهش من جرأتها على التعري أمام الغرباء، ويغضب لذلك، كانوا ينظرون إلى المرأة المنقبة بالنظرات نفسها، وكأن العري هو القاعدة، والنقاب هو الشذوذ عن تلك القاعدة. أو هو كذلك بالفعل في مدينة أوربية مثل فارنا.

• • •

هاري بوتر في بلغاريا

وأنا في طريقي للبحث عن كتب عربية لدى بائعي وبائعات الكتب القديمة، وجدت مكتبة تبيع الكتب الجديدة وأشرطة الفيديو والكاسيت والأسطوانات المدمجة C.D واللوحات التشكيلية وغيرها. دخلت المكتبة وسألت البائعة عن أي كتاب باللغة العربية، فلم تفهم شيئا من كلامي الذي حاولتُ تبسيطه باللغة الإنجليزية التي أجيدها أحيانا، ثم أشارت إلى زميل لها، ففهم ما أقول: وجاءني بكتاب مجلد ومصوَّر يجمع بين اللغتين العربية والبلغارية عنوانه "العرب والبلغار"، فرحتُ بالكتاب، وسألته عن ثمنه فقال لي: "خمسة وأربعون ليفا" (أي ما يعادل خمسة وعشرين يورو، أو ثمانية وعشرين دولارا أمريكيا تقريبا) وجدت المبلغ كبيرا، فحاولت شراءه بسعر أقل (ثلاثين ليفا مثلا) فلم يوافق البائع، وقال إن الأسعار محددة.

أخذت جولة في المكتبة، فرأيت ترجمة الجزء الأول "حجر الفيلسوف" من سلسلة روايات "هاري بوتر" إلى البلغارية، ومعه الشريط السينمائي الخاص به. ووجدت الجزء الأول من شريط "الرجل العنكبوت" الذي كان يُعرض الجزء الثاني منه في إحدى دور السينما القريبة من شاطئ البحر بنهاية الشارع الذي يقع به الفندق، وقد شاهدت هذا الجزء مع الأشقر، وكان سعر التذكرة (خمسة ليفات، أي ما يعادل حوالي ثلاثة دولارات).

لغتكم غير منتشرة في أوربا

سألت بائع الكتب عن كتب عربية أخرى فقال لي إنه لا يوجد سوى هذا الكتاب. فقلت له ولماذا الكتب الإنجليزية والفرنسية قليلة؟ فأجاب إن تعليم تلك اللغات بالمدارس والمعاهد هنا، ليس على المستوى المطلوب، على العكس من تعليم اللغة الروسية التي تعتبر اللغة الثانية ــ بعد البلغارية ــ في البلاد، ومن أراد أن يتعلم لغة أخرى، فليعتمد على نفسه في هذا الخصوص.

قلت له: ولكن محاولة دخولكم الاتحاد الأوربي، والاندماج مع الدول الأوربية الأخرى، خاصة دول غرب أوربا، ألا يشجع حكومتكم على محاولة الترويج للغات الأوربية المنتشرة عالميا، مثل الإنجليزية والفرنسية، ليتعلمها أفراد الشعب البلغاري، فأنا أرى أن لغتكم غير منتشرة في أوربا، ولن أقول البلاد الأخرى في آسيا وأفريقيا والأمريكتين وأستراليا. بل إن وجود كثير من السياح من أماكن كثيرة من العالم في فارنا، كما أرى الآن، يحتم على المتعاملين معهم معرفة أكثر من لغة للتفاهم مع هؤلاء الضيوف الذين يفيدون الاقتصاد البلغاري في المقام الأول.

لم يجبني بشيء.

فهل هو الخوف من التحدث مع الآخرين عن أمور تخص السياسة العامة للبلد؟

أم أنه لم يفهم حديثي؟

نقلت الحديث إلى وجهة أخرى، وسألته عن مدى انتشار شبكة الإنترنت، فأجاب إنها موجودة في كل مكان، وأشار إلى مقهى إنترنت قريبا من المكتبة. (يبدو أنه أراد أن يتخلص مني).

* * *

في نادي الإنترنت

ذهبت إلى مقهى الإنترنت، أو نادي الإنترنت، كما هو مكتوب على اللوحة الكبيرة المعلقة على المدخل، وسألت عن أسعار الخدمة، فقيل لي أقل من ليف برتغالي في الساعة، فوجدت أنه سعر رخيص نسبيا، فكنت أتردد يوميا على ذلك النادي أمكث فيه ساعتين في المتوسط، ومن حسن الحظ أنني وجدت كل المواقع العربية تفتح أبوابها في فارنا، ولكن العيب الوحيد هو عدم القدرة على الكتابة باللغة العربية إلى تلك المواقع، ذلك أن لوحة المفاتيح (كيب ورد) غير معدة للحروف العربية، وإنما للحروف اللاتينية والحروف البلغارية، فكنت أكتب خطابات سريعة بالإنجليزية إلى بعض الأصدقاء، وأجلت كتابة أو قراءة الرسائل العربية لحين عودتي إلى مصر.

* * *

الموسيقى والفن التشكيلي

من خلال جولاتي بعد الخروج من السيبر سبيس (أو مقهى الإنترنت)، وجدت أن هناك اهتماما بالفنون التشكيلية، حيث يوجد صالات عرض كثيرة، كما تعرض اللوحات على أرصفة الشوارع، وإلى جوار الكنائس، وفي الحدائق العامة، وفي الأسواق الكبيرة. ومعظمها من اللوحات التي تهتم برسم الطبيعة: الورود أو الأزهار والبحار - في حالاتها المختلفة - إلى جانب رسم الكنائس والجبال والغابات والأشجار والنساء - في أوضاع مختلفة - فضلا عن البورتريهات.

أيضا وجدت اهتماما بالموسيقى الشعبية، حيث تقدم الفرق الموسيقية والغنائية - ذات الزي المتميز - عروضها في الميادين العامة. وأثناء سماعي لإحدى المقطوعات وجدت موسيقاها قريبة جدا من إحدى مقطوعات سيد درويش الموسيقية. وأرجعت ذلك إلى تأثر سيد درويش بموسيقى الجاليات الأجنبية في الإسكندرية، ومنها الجاليات اليونانية والتركية والإيطالية. فضلا عن سفره إلى الشام وتعلمه الموسيقى هناك.

وأعتقد أن الموسيقى التراثية البلغارية قد تأثرت بدورها بالموسيقي التركية، أو فلنقل العثمانية، حيث كانت بلغاريا إحدى مناطق النفوذ والحكم العثماني لفترات طويلة، فهي إحدى بلدان شبه جزيرة البلقان (يحدها شرقا البحر الأسود، وشمالا رومانيا، وغربا البوسنة والصرب (أو يوجوسلافيا القديمة) وجنوبا اليونان، وفي الجنوب الشرقي تركيا الأوربية).

* * *

حبات الخوخ والعجوز اليوناني أبسترو كريانز

من ثمرات الرحلة أيضا، لقاءاتنا اليومية مع العجوز اليوناني المقيم في فارنا، أبسترو كريانز، الذي كنا نقابله كل مساء على أحد المقاعد الخشبية الموجودة بالشارع الرئيسي أمام الفندق، وهو شارع مخصص للمشاة فقط، ويشبه إلى حد كبير شارع الاستقلال بمدينة استانبول، مع ملاحظة أن شارع الاستقلال تسير فيه عربات الترام العتيقة، بينما لا تسير مثل هذه العربات في شوارع فارنا، وإنما هناك الترولي باص، والأتوبيسات العامة.

عندما عرف أبسترو كريانز أننا من الإسكندرية، تحدث بحب عنها، وذكر لنا أن أباه عمل في الإسكندرية لمدة سبع سنوات قبل الحرب العالمية الثانية، وأنه كان يحدث أولاده عنها بحب شديد، وكان دائما يحن إلى زيارتها، فهو يعتقد أن الإسكندرية مدينة يونانية، يجب على كل يوناني أن يزورها، إن لم يعش بها.

وعندما سألتُ كريانز: هل زرت الإسكندرية؟ أجاب أنه لم يررها، وأنه يتمنى ذلك.

يسكن العجوز اليوناني كريانز في شارع جانبي أمام الفندق، وفهمت أنه يقيم في دار للمسنين مع عجائز من الجنسين، من البلغار وجنسيات أخرى مثل الروس والأتراك. وأنه يتعاطف مع القضية الفلسطينية، ولم يحب الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن، لأنه شنَّ حربا على العراق دون سند قوي.

ويرى كريانز أن العرب لو اجتمعوا على كلمة واحدة لتمكنوا من السيطرة على إسرائيل، ويتعجب كيف أن الدول العربية المحيطة بإسرائيل: سوريا ولبنان والأردن والسعودية ومصر، لم تستطع أن تتحد للقضاء على المظالم أو المزاعم الإسرائيلية في المنطقة، وأنه يبكي عندما يرى على شاشات التلفزيون مقتل النساء والأطفال والشيوخ من الفلسطينيين يوميا.

عندما عرف كريانز أننا سنغادر فارنا بعد عدة ساعات، حزن كثيرا، وذهب إلى داره، وأحضر لكل واحد منا أربع خوخات كبيرات، وقال إنه لا يملك سوى حبات الخوخ تحية لنا. وقال: أرجو ألا تنسوني. وسلم علينا بحرارة شديدة، وكأنه أحد أفراد عائلتنا. وقتها أحسست أني أحب هذا الرجل العجوز (الذي أطلق عليه الأشقر لقب زوربا اليوناني) والذي لم أعرف لماذا هو موجود في بلغاريا، ولماذا لم يعد إلى وطنه الأصلي اليونان، وهو في مثل هذه السن المتقدمة التي تحتاج إلى الرعاية والمساندة.

لم أشأ أن أمد يدي إلى ثمرات الخوخ، إلا وأنا في طريقي إلى مطار فارنا للعودة إلى مصر، وكان أجمل خوخ ذقته في حياتي.

الباليرينا اليابانية
واتاناكي كيوكو

عندما سكنت الغرفة ٣٠٦ وجدت امرأة يابانية تميل إلى القصر، واقفة بالشرفة المجاورة والملاصقة لشرفتي، قمت بتحيتها قائلا: أوهايو (صباح الخير)، فردت بابتسامة واسعة: أوهايو. وعرفت منها سبب مجيئها إلى فارنا، فابنتها الباليرينا واتاناكي كيوكو، الطالبة بالأكاديمية الفرنسية بباريس، مشتركة في تقديم باليه على المسرح البلغاري بفارنا، مع جنسيات أخرى، ضمن نشاط منظمة اليونسكو العالمية للتقارب بين الشعوب.

بعد قليل أطلت من ورائها فتاة باسمة الوجه، ضئيلة الحجم، دقيقة الأعضاء، عرفت من جسمها أنها الباليرينا كيوكو، فقلت لها: أوهايو، وردت علي باسمة بالكلمة نفسها.

تأملت جسمها الدقيق جدا، وقلت فعلا جسمها لا يصلح لأي شيء آخر، سوى الباليه.

تحدثنا معًا باليابانية، فلم أفهم شيئا، ثم استأذنا ــ بانحناءة رأسيهما ــ للدخول إلى غرفتهما، فأحنيتُ رأسي لهما.

* * *

في المساء رأيتهما في بهو الفندق، وكانت واتاناكي مشرقة جدا، ومتألقة جدا، بعد أن وضعت مكياجها الذي يناسب استعراض الباليه.

ثم بدأت تخرج من مصاعد الفندق الثلاثة، عشرات الباليرينات في أحجام مختلفة، ولكن أدق الأحجام وأصغرها كانت واتاناكي.

ثم ظهر قائدهم ــ شاب رياضي لم أستطع تحديد جنسيته ــ وبإشارة واحدة منه، وقف الجميع صفا واحدا في أقل من دقيقة. أملى عليهن تعليماته، وأشار بيديه

إلى أكثر من باليرينا، فتقدمن أمام الصف. أخذ يفحص مكياجهن جيدا، ويدقق في عيونهن، وفي آذانهن، وفي ملابسهن، ثم أمرهن بالرجوع إلى الصف.

في أقل من دقيقة كان الصف يتجه إلى خارج الفندق، وكأنه صف من الجنود يسير إلى معركة فاصلة.

خرجتُ وراء الصف لأرى إلى أين ذاهبون. فاتضح أن دار الأوبرا التي ستقدم عروض الباليه لا تبعد سوى أمتار عن الفندق.

نظرتُ إلى الأم اليابانية، وهي تسير إلى جوار الصف، وتتأمل ابنتها بعينين دامعتين فيهما قدر كبير من السعادة والخوف.

رفعت يدي محييا واتاناكي لأشجعها، نظرتْ إليَّ ولم تبد أي استجابة.

حاولت أن اقترب من الأم لأشعرها بوجودي، ولكنها لم تر شيئا من حولها سوى ابنتها.

أخذت أنظر إلى كل المشتركين، علني ألمح وجها مصريا أو عربيا، فلم أجد سوى الوجوه الآسيوية والأوربية، مشرقة متألقة متلألئة في صلابة وتحد وجمال.

حين حاولت الحصول على تذكرة دخول لأشاهد فتاتي اليابانية، لم أجد أحدا في شباك التذاكر، بينما كانت الأم تقف في فخر واعتزاز بجوار بوابة الدخول الرئيسية.

حين فتحت البوابة الرئيسية لدخول الجمهور، هممت باللحاق بها، لكنها كانت أسرع مني في الدخول إلى الصالة لتشاهد ابنتها الباليرينا، وهي تصعد إلى سماء الفن العالمي.

قوّادٌ من فارنا

أثناء عبوري الشارع المجاور للفندق اقترب مني شاب يعرض عليَّ تغيير عملة من الدولار أو اليورو إلى الليف البلغاري، وأن أسعاره أفضل من أسعار البنك ومحلات الصرافة بكثير. شكرته قائلا: لقد غيرت العملة في البنك بسعر معقول وانتهى الأمر. فأخرج من جيبه صور فتيات ونساء جميلات في أوضاع مثيرة لأختار من بينهن واحدة لمدة ساعة، أو ليلة، أو أكثر ولكل حسابه، وأن التي سأختارها ستصل إلى حجرتي بالفندق في الوقت الذي أحدده.

قلت له: أنا لا أمارس الجنس بهذه الطريقة المبتذلة.

قال: ليست مبتذلة، وهذه هي وظيفتي التي آكل منها عيشي.

قلت: بئس الوظيفة.

ولم أشأ أن أجادله في الأمر فهو مقتنع بما يفعل، وأنها وظيفته الأساسية.

قبل أن يتركني وضع في يدي صورة إحداهن، وقال: هذه أجمل فتاة عندي، وسأمنحك خصما كبيرا. فكِّرْ في الأمر، فهو فرصة جيدة، ومن حسن حظك أن الفتاة غير مرتبطة هذه الليلة مع أحد.

تركتُه، ومضيتُ في طريقي، وأنا أكثر استياءً.

بعد خطوات وجدته ثانية يعترض طريقي، وفي الوقت نفسه يهمس في أذن فتاة تعبر الطريق بجواري: أن لديه شابا قويا من الممكن أن يمتعها أسبوعا كاملا.

رمقته الفتاة بكم كبير من الاحتقار (أو هكذا خُيل إلي) دون أن تنطق بكلمة، وفي الوقت نفسه نظرت إليَّ من فوق لتحت ظنا منها أنني هذا الشاب القوي المتين الذي سيمتعها ويصرف عليها طيلة الأسبوع. ونطقت بكلمات لم أفهم معناها، ولكنني أحسست أن بها كما من السباب والتهكم. ثم ضحكت ساخرة، ومضت في حال سبيلها.

أخذت أعاتب هذا القوّاد اللعين الذي أهانني باقترابه مني ثانية، وحديثه العاري إلى الفتاة، فإذا به يعاتبني على أنني كنت واقفا بجوارهما أتسمّع ما يدور من أسرار العمل.

ثم قال بعصبية: إن الفتاة كانت سترضى بعرضي، فقد لمحتُ في عينيها شبقا ونهما للجنس والمال، ولكن ظنت أنك الشاب الذي أعرضه عليها، فأبت ذلك. لقد أفسدتَ البيعة عليَّ، وعليك أن تعوضني عن ذلك.

لم أعرف كيف أتصرف مع هذا الشيطان الملعون. فقلت له: إياك أن تريني وجهك مرة أخرى وإلا سأبلغ البوليس. ومزقت الصورة التي كانت في يدي.

رحلتان إلى نيسبار وسفينة القراصنة

رحلـــتان قمـــنا بهمـــا من فارنا إلى الأراضي والبحار البلغارية المجاورة، الأولى رحلة برية، والأخرى بحرية.

أثـــناء ذهابـــنا إلـــى مدينة نيسبار التاريخية أو الأثرية المطلة على البحر الأســـود، والتـــي تجمـــع على أرضها أكثر من أربعين كنيسة قديمة، عبرنا جبالا ومرتفعات ومنخفضات وغابات شديدة الخضرة والتنوع.

وعلـــى الـــرغم مـــن أن المسافة لا تزيد على سبعين كيلو مترا بينها وبين فارنـــا، إلا أن وعـــورة الطريق وضيقه وسط الجبال والغابات الخضراء وداخلها وفوقها وتحتها، جعل سائق الأتوبيس يسير بحذر شديد، وعلى سرعة لا تزيد على عشـــرين أو ثلاثيـــن كـــيلو مترا في الساعة، فوصلنا نيسبار بعد أكثر من ساعتين ونصف الساعة.

كانـــت مشرفة الرحلة خلالها تتحدث في ميكرفون الأتوبيس، وتُدلي بالكثير مـــن المعلومـــات عن دولة بلغاريا، ولكن باللغة الروسية، نظرا لوجود أكثرية من الروس بالرحلة.

ولكـــن نبَّهها أحد المشاركين إلى محاولة التحدث بالإنجليزية ـــ إن لم يكن بالعربـــية ـــ لوجود جنسيات أخرى بالأوتوبيس، ولم يكن غيرنا نحن المصريين. فحاولـــتْ أن تـــتحدث بالإنجلـــيزية، ولكنها سرعان ما كانت تعود إلى الروسية أو البلغارية، مرة أخرى.

كان يجلس إلى جانبي شاب أجنبي، حاولت أن أجعله يتكلم، لأعرف إلى أية جنسية ينتمي، فإذا به روسي أيضا، لكنه يتحدث قليلا من الإنجليزية، فقلت لا بأس، وعرفـــت منه أنه سيقوم بزيارة شرم الشيخ خلال شهر نوفمبر القادم، وأنه سبق له زيارة القاهرة من قبل، ولكن شرم الشيخ تعجبه أكثر في هدوئها وطبيعتها الساحرة.

وعندما عرف أنني من الإسكندرية، قال إنه يسمع عنها كثيرا وعن مكتبتها الكبيرة، ولكن لم يزرها بعد.

قلت له: أتمنى أن تزورها في أقرب وقت ممكن.

فأجابنـــي إنه سيحاول ذلك، وربما يقضي الصيف القادم بها، بدلا من فارنا التي يزورها كل عام.

طـــبعا فرحت بداخلي لهذا الرد، وسألت نفسي: هل يعد ذلك سرقة سائحين من بلد إلى بلد؟ أم إعلانا ودعاية لبلد في بلد آخر يعد منافسا سياحيا؟

أيًّـا كـــان الأمـــر فقد تذكرت ـــ في تلك اللحظة ـــ البحارة الروس، وهم يجوبـــون شـــوارع الإســـكندرية، وعلى وجه الخصوص منطقة المنشية، ومحطة الرمل، وشوارع سعد زغلول وصفية زغلول والنبي دانيال والغرفة التجارية، أثناء الوجـــود الســـوفيتي في مصر أيام جمال عبد الناصر، وكان الباعة في الإسكندرية يشـــكون منهم لأنهم لا يشترون من بضائعهم شيئا، وإنما كانوا يشاهدون البضائع ويعاينونها ويعرفون أسعارها، ثم يمضون في حال سبيلهم.

* * *

فـــي الطريق إلى نيسبار، قمنا بزيارة قرية بلغارية، تناولنا فيها غذاءً ريفيا مكونـــا مـــن: شـــربة فاصولياء، ولحم دجاج، وأرز، وسلطة خضراء بالبطاطس والبصل، ومشروبات غازية.

تفقدنـــا محتويات المطعم البلغاري الذي كان على شكل منزل ريفي واسع، فوجدناه يتـ ـن من عدة حجرات وفنائين واسعين.

كانـــت هـــناك حجرة لدنان أو براميل الخمر وصناعتها وتعتيقها، وحجرة لتربـــية الطيور والحيوانات، وحجرة للحدادة وتصنيع أو إصلاح العربات الخشبية، وكانت هناك ساقية صغيرة لرفع الماء الذي يأتي من عيون الجبال والغابات باردا، وتحـــته توضع زجاجات المشروبات الغازية والروحية لتبريدها، فضلا عن المطبخ

ودورة المـــياه، وفـــي ناحـــية أخرى من هذا المنزل الريفي، كانت حجرات النوم والاستقبال، وفناء آخر لقضاء أوقات السمر.

كـــان الذبـــاب منتشرا في هذا المنزل الريفي، وعندما تأفف بعض النساء المصـــريات، وبالغـــن في ذلك، قالت المشرفة البلغارية: ألا يوجد لديكم ذباب في الـــريف المصـــري بهذه الطريقة وأكثر. وكأنها زارت ريفنا المصري، أو تعرف طبيعته.

قلتُ في نفسي: ليس الريف المصري الذي ينتشر فيه الذباب، فحسب ولكن المدن أيضا. والحمد لله أننا لم نتكلم بعد عن الناموس.

قالت إحداهن بتأفف شديد: يوجد، ولكن ليس بهذه الكمية.

وفضلت السكوت منعا للحرج.

بعد أن تناولنا غذاءنا (الذي كنا نهش عنه بعض الذبابات المتحلقات حولنا) انطلق بنا السائق وسط الجبال والغابات مرة أخرى إلى مدينة نيسبار.

تجولـــنا في المدينة، فإذا بها مدينة شديدة الهدوء، تشبه إلى حد كبير مدينة سييرا المجاورة إلى استانبول في تركيا.

فـــي نيســـبار، وجدنا اهتماما بالفنون التشكيلية، وعلى إحدى القلاع القديمة المطلة على البحر، وجدنا لوحة مكتوب عليها (art gallery) تجولنا بداخل القلعة، وشـــاهدنا ما يبدعه الفنانون البلغاريون من لوحات وتماثيل وخزفيات وبورتريهات وأشكال فنية أخرى.

ووجدنـــا لهـــذه القلعة نماذج وأشكال ذات مقاسات مختلفة، تباع لدى بائعي الـــتذكارات والهدايا على شكل أطباق تعلق على الحائط، أو أطباق ذوات حوامل، توضع على موائد الصالونات أو فاترينات العرض، أو ما شابه ذلك.

طـــريق العـــودة كـــان مختلفا، حيث مررنا على الشريط الساحلي للمدينة، فوجدنا عشرات الفنادق والموتيلات، الملاصقة لبعضها البعض، وكلها كانت زاخرة

بالنزلاء والمصيفين، ولفت انتباهي فندق كبير داخل غابة، أو يضم إليه غابة طبيعية مســورة بالأســلاك، كإعلان عن حدود غابة الفندق، وبعدها مباشرة توجد فنادق أخرى.

بعد انتهاء سلسلة الفنادق والموتيلات، وجدنا أنفسنا مرة أخرى في الطريق الجبلي المتجه إلى فارنا.

* * *

أما سفينة القراصنة فهي الرحلة البحرية التي بدأت ــ في يوم آخر ــ من شــاطئ الــرمال الذهبــية الذي يقع على بعد ١٨ كيلو مترا من فارنا، حيث قمنا بالصــعود مــن مرســاه إلى مركب على شكل سفينة صغيرة من سفن القراصنة القديمة، وأبحرنا داخل البحر الأسود.

فــي عمــق المياه فوجئنا بسفينة أخرى مشابهة، تقترب منا وتقذفنا بعبوات بلاستيكية من مياه البحر، فقام مجموعة من الأطفال والشباب على سفينتنا المصرية - فكــل مــن علــيها مصريون - بإعداد سريع لعبوات مماثلة، وقذفوا بها راكبي الســفينة الأجنبــية المهاجمــة، وتم تبادل إطلاق المياه على هذا النحو، كنوع من الألعاب الترفيهية والتسلية داخل البحر.

وكــان قائدا السفينتين البلغاريان يبتعدان ويقتربان حسب أصول اللعبة التي يخططان لها لإسعاد الركاب، والترفيه عنهم، ومياه البحر لا تنتهي بطبيعة الحال.

عندما أوشكت الأكياس البلاستيكية على النفاد، استخدم الأطفال والشباب من كــلا الطرفيــن الجرادل لملأ المياه وقذفها في وجوهنا لحظة اقتراب السفينتين من بعضهما البعض.

وعــندما حل التعب بالفريقين، أخذ كل قائد سفينة يبتعد بسفينته عن الآخر، بينما يلوح الفريقان لبعضهما البعض في سعادة ومودة.

ولحسن الحظ لم ينتصر فريق على الآخر.

قــبل أن تغــرب شــمس الــبحر الأسود، تناولنا عشاءنا على ظهر سفينة القراصـــنة، وكان عبارة عن سمكة واحدة مشوية أمامنا على الفحم - لا تسمن ولا تغني من جوع البحر - لكل فرد من أفراد الرحلة، وطبق سلطة (يتكون من شرائح قليلة من الطماطم والخيار) وشريحة خبز أبيض.

بعدهـــا عدنا إلى فارنا، لنستكمل عشاءنا بالفندق، أو لدى بائعي سندوتشات الشاورما والبيتزا والهامبورجر (للأسف لم يكن هناك مطاعم فول وفلافل وكشري) ونعد أيامنا الباقيات في تلك المدينة الساحرة.


الرحلة الإسبانية

أيامٌ في قرطبة

وساعتان في الزهراء

لم تكن أيامنا في قرطبة، كلها جلسات وندوات وأمسيات شعرية، ضمن احتفالية مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بألفية الشاعر العربي ابن زيدون، فحسب، ولكن كانت هناك فرص للتجوال في شوارع المدينة الخضراء الهادئة النظيفة اللامعة، وداخل بعض محلاتها الكبيرة التي كانت أسعار منتجاتها مرتفعة بعض الشيء، وخاصة بعد تطبيق العملة الموحدة لدول الاتحاد الأوربي (اليورو).

وقد عرفنا الطريق إلى شوارع وأسوار قرطبة القديمة الأندلسية، بمعاونة كل من د. نجوى محرز، ود. نادية جمال الدين المتخصصتين في الأدب الإسباني، وأدب أمريكا اللاتينية، والأخيرة تخصصت في أعمال أكتافيو باث، ونالت عنها درجتي الماجستير والدكتوراه، وترجمت كتابه الشهير "متاهة الوحدة" إلى اللغة العربية، بالإضافة إلى أعمال أخرى.

اجتزنا إحدى البوابات القرطبية، ومشينا في الشوارع القديمة، وشاهدنا العمارة الأندلسية، بمنمنماتها وزخارفها ونقوشها الإسلامية، وحسنًا أن احتفظ الإسبان بالطابع الإسلامي لهذه العمارة، على الأقل لجذب مزيد من السواح لرؤيتها وأخذ الصور الفوتوغرافية بجانبها، فهي تختلف عن العمارة الأوربية الحديثة في الروح، وفي كثير من التفاصيل.

أخيرا وصلنا إلى جامع قرطبة الشهير، الذي بُني في القرن الثامن الميلادي، والمرفوع على ثلاثمائة عمود، ويتسع لحوالي ثمانين ألف مصل، وبه زخارف ونقوش وفسيفساء إسلامية الطابع، ويقال إنه أكبر جامع في أوربا كلها، إن لم يكن في العالم كله، ولكن قلت لصاحب المعلومة، إن المسجد الحرام في مكة

المكـــرمة، والمســـجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، بعد توسعة خادم الحرمين الشـــريفين الأخـــيرة، يعدان من أكبر مساجد العالم اليوم. ولكن ليست هذه القضية، فرُبَّ مسجد صغير في قرية صغيرة يقوم بشعائره الإسلامية على الوجه المطلوب، أكثر من مساجد كبرى لا تؤدي واجبها على النحو اللائق إسلاميا.

وربمـــا كان يقصد محدثي أن مسجد قرطبة كان الأكبر في العالم القديم، أو في العصور الوسطى.

حزن وهلع في جامع قرطبة

أصـــابني الحزن والهلع عندما دخلت جامع قرطبة بعد أداء رسوم الدخول المقـــررة، وقدرهـــا ثلاثة يورو، فقد مُنعت إقامة الشعائر الإسلامية داخل المسجد، بينما وجدت كاتدرائية كاملة بالداخل يصلي بها بعض المسيحيين (حيث تحول جزء مـــن المســـجد إلى كاتدرائية عام ١٢٣٨م) ونُزعت بعض الآيات القرآنية من على جـــدران المســـجد، والعمـــل يتم على قدم وساق لإزالة آثار المنبر، وأُغلقت بعض مـــناطق المســـجد، لإعـــادة الترمـــيم التـــي تعني إزالة بعض المظاهر أو المعالم الإسلامية.

لقـــد تخلَّى مسجد قرطبة عن سمته الإسلامي، لتحل محله الرموز والصور والأيقونات المسيحية، ناهيك عن مئذنة المسجد التي اعتلاها الصليب، وأسفله أقيمت بعض التماثيل الملائكية.

قد يكون الهدف من وراء ذلك إثبات أن المكان يتسع لإقامة شعائر الديانتين معـــا الإســـلام والمســـيحية، على اعتبار أن دولة الأندلس القديمة قامت على هذا التعايش والتسامح والتعددية بين الديانات الثلاثة الإسلام والمسيحية واليهودية، كما أكد بعض الباحثين ذلك في ندوات دورة ابن زيدون التي نظمتها مؤسسة عبدالعزيز ســـعود البابطيـــن للإبـــداع الشـــعري، بالـــتعاون مع جامعة قرطبة خلال الفترة مـــن ٤ ــــ ٨ أكـــتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٤. ولكن أن تُمنع إقامة صلاة المسلمين

داخل هذا المسجد، فهو أمر يُبعث على الخوف والشك معا، وعلى أن شعار التعددية والتسامح والحوار، وما يشابه هذه الشعارات، ليس له تطبيق على أرض الواقع.

وقد لاحظ بعض زملاء الزيارة أن بعض المرشدين السياحيين من الإسبان يدلــون بمعلومـــات خاطئة ومشوهة عن الإسلام والمسلمين الذين فتحوا الأندلس، للأفواج السياحية الأجنبية التي تزور المسجد، ولابد من وقفة لتصحيح الأمر.

لقــد تجولــنا في كل أنحاء المسجد، وتذكرت على الفور تجوالنا في العام الماضي، بداخل مركز أو متحف آيا صوفيا (بيت الحكمة المقدسة) باستانبول الذي كان كنيسة ثم تحول إلى مسجد عندما دخل محمد الفاتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، ثــم تحــول إلى مركز أو متحف يجمع بين مظاهر الديانتين معا، في عصر كمال أتـــاتورك، وحتى الآن، ولكن الأمر مختلف في جامع قرطبة، الذي لم يتحول اسمه بعد إلى مركز أو متحف، وإن كانت كل الدلائل العملية تشير إلى أنه في سبيله إلى ذلك، غير أن كلمة وزيرة الثقافة وممثلة الحكومة الإسبانية كارمن كالفو أشارت في حفــل افتتاح دورة ابن زيدون إلى المسجد باعتباره مسجدا، وليس متحفا أو مركزا كمركــز آيا صوفيا، فقالت في كلمتها: "إن وشم تاريخنا تعبر عنه متاحفنا وأحياؤنا وآثارنـــا ومسجدنا ومدينتنا الزهراء ..."، ولكن حقيقة فوجئت أن كلام وزيرة الثقافة فـــي واد، ومـــا يتم على أرض الواقع الإسباني أو القرطبي في واد آخر. وهذا ما شــعر بــه زمـــلاء الزيارة د. نجوى محرز، ود. عبد الرزاق حسين، ود. محمد مصطفى أبو شوارب، والكاتب الصحفي مصطفى عبد الله، والشاعر السعودي أحمد العمير، وغيرهم.

جامع قرطبة: موطن عبادة ومجمع سياسة وندوة علوم

تقــول كتــب التاريخ عن قرطبة، إنها درة الأندلس وإحدى حواضر العالم المعــروف فـــي القــرون الوســطى، افتن العرب في تشييدها وعمرانها، فناهزت قصورها ستين ألف قصر، وحماماتها سبعمائة حمام، ومساجدها ١٦٠ مسجدا (أين

هي الآن؟)، وقارب سكانها المليون، ولم تكن مدينة بأوربا يأوي إليها زمن ازدهار قرطبة أكثر من خمسين ألفا.

وقد اشتهرت قرطبة بمسجدها الجامع حيث كان موطن عبادة ومجمع سياسة ونـــدوة علـــوم، وكان يتسع لثمانين ألف مصل، وقد أفاض المؤرخون في وصف قرطبة وضواحيها ومساجدها ومنتزهاتها وقنواتها وجسورها بما يبهر الخيال.

ولابن زيدون أبيات تشع بالحنين والحب لقرطبة يقول فيها بعد هروبه منها:

أقُرْطُبةُ الغرّاءُ! هل فيكِ مَطْمعُ؟
وهل كَبدٌ حرّى لبَيْنِكِ تُنْقعُ؟
وهل لليالِيكِ الحميدةِ مَرْجعُ
إذِ الحسنُ مرأى - فيكِ - واللهوُ مَسْمَعُ
وإذْ كَنَفُ الدنيا - لديكِ - مُوَطَّأُ

وفي قصيدة بعنوان "ليالي قرطبة" يقول:

سَقَى جنباتِ القصرِ صَوبُ الغمائمِ
وغنّى على الأغصانِ وُرقُ الحمائمِ
(بقرطُبَةَ) الغرّاءِ دارِ الأكارمِ
بلادٌ بها عقَّ الشبابُ تمائمي
وأنجبني قومٌ - هناكَ - كرامُ

لكن الشاعر المعاصر عبد المنعم الأنصاري، يقول عن قرطبة، بعد حوالي ألف سنة مما قاله ابن زيدون:

رأيتُ قرطبةً بالقارِ تغتسلُ
رأيتُ أهدابَها بالذُّلِّ تكتحلُ
رأيتُها تحت أمطارِ الظلامِ وفي
عيونِها رغبةٌ خضراءُ تشتعلُ

وتدلـنا الموسـوعة العربية الميسرة أن هناك مدينتين أخريين تحملان اسم قرطـبة، الأولـى بالمكسـيك وتأسست عام ١٦١٨، وفيها وقعت معاهدة استقلال المكسيك عن إسبانيا عام ١٨٢١، والأخرى عاصمة إقليم قرطبة بوسط الأرجنتين، وبهـا جامعـة تأسسـت عام ١٦١٣. ويبدو أن احتلال إسبانيا لبعض بلاد أمريكا اللاتينـية، أو أمريكا الجنوبية، ألقى بظلاله الكثيفة، فسادت اللغة الإسبانية في تلك المناطق، وأطلقت أسماء المدن الأندلسية على بعض النواحي بتلك البلاد.

ساعتان في مدينة الزهراء

ولأننا لم نجد وقتا لزيارة غرناطة التي تبعد عن قرطبة حوالي ساعتين، ولم نتمكـن بالتالـي من مشاهدة قصر الحمراء، لضيق الوقت، فقد نظمت لنا مؤسسة البابطيـن زيارة سريعة إلى مدينة الزهراء المتاخمة لمدينة قرطبة أو المجاورة لها مـن ناحـية الغـرب، والتي قررت الحكومة الإقليمية الأندلسية في ١٩٨٩/٦/٦ اعتبارها منطقة آثار ذات أهمية تاريخية بناء على قرارها رقم ١٩٨٩/٦٢١. ذلك أن خليفة الأندلس عبد الرحمن الثالث (عبد الرحمن الناصر) شرع في عام ٩٣٦ م فـي بـناء مديـنة على سفوح جبال "سييرا مورينا" ليتخذها مركزا يمثل الخلافة الجديـدة. وتشير مصادر التاريخ الإسلامية إلى أن عدد العمال الذين اشتركوا في بـناء وتشييد هذه المدينة وصل إلى عشرة آلاف، كانوا يضعون يوميا حوالي ستة آلاف حجر منحوت، ويستخدمون قرابة أربعمائة حمولة من الجبس والجير، وألف وخمسمائة دابة لنقل خامات ومعدات البناء.

ولعل جامع مدينة الزهراء كان هو الأسبق في الافتتاح، قبل انتهاء الأعمال فـي بقية المدينة، حيث افتتح الجامع عام ٩٤١ م، بينما لم ينتقل الخليفة ومؤسسات الحكـم المختلفة لها إلا في عام ٩٤٥م. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الاتصالات بيـن مدينة الزهراء وقرطبة تجري عن طريق شبكة طرق تربط بينهما، استطاع علمـاء الآثـار أن يحددوا طريقين منها، وهما: الطريق الذي كان يقود إلى قصر

الخلافـــة من ناحية الشمال، والطريق الآخر من الناحية الجنوبية، وكان يتوغل في المدينة.

يقول علي عبد العظيم محقق وشارح ديوان ابن زيدون عن مدينة الزهراء: "الزهـــراء ضاحية من ضواحي قرطبة، أنشأها الخليفة الناصر بسفح جبل العروس تخلـــيدا لذكـــرى محظية لـــه، وسماها باسمها، ورصد لتشييدها ثلث جباية الدولة، وكانـــت تلـــك الجباية تناهز ٤٠ ألف ألف دينار (أي ٤٠ مليون دينار) واستمر في بـــنائها عشـــرات الأعـــوام، وجلب إليها الرخام ومهرة الصناع من القسطنطينية، فجاءت آية من آيات العمارة في القرون الوسطى".

ولكن لم تستمر مدينة الزهراء في أداء رسالتها الجمالية والوظيفية الشامخة، ســـوى خمســـة وسبعين عاما فقط، حيث طالتها يد الهدم والتخريب نتيجة الحروب التـــي أطاحت بالخلافة الأموية بالأندلس، وأدت إلى سقوط مدينة الزهراء في ظلام النســـيان والـــتجاهل أكثر من ألف سنة. ومع أعمال الحفر والتنقيب، كان ما يُعاد اكتشـــافه مـــنها يُظـــن أنـــه من آثار قرطبة القديمة، إلى أن كشفت أعمال بعض الحفـــريات فـــي عام ١٩١١ أن ما يكتشف من أحجار وطرق في هذه المنطقة، لا ينتمـــي إلـــى قرطبة القديمة، وإنما هو مدينة الزهراء تعلن عن نفسها بقوة، بعد أن كان الظن أن الزهراء مدينة أسطورية لا وجود حقيقيا لها على الأرض الأندلسية.

لقد رأينا المدينة تمتد على ثلاثة سفوح، بالسفح الأعلى يوجد القصر، حيث كـــان يقيم الخليفة، وأهم رجال الدولة من وزراء وإداريين إلى جانب مباني أخرى خاصـــة بالشئون العسكرية، ويمثل هذا الجزء بالإضافة إلى الجامع ما كشفت عنه عمليات الحفر والتنقيب حتى الآن.

أما في السفح الأوسط فتوجد الحدائق والبساتين، وفي السفح الأسفل يوجد ما يمثل المدينة ومساكنها وبناياتها.

ويلاحظ وجود مجموعة رائعة من الأقواس تمثل واجهة رواق الأعمدة التي تميزت بها تلك المدينة القديمة، والتي تتشابه مع أقواس أعمدة مسجد قرطبة إلى حد كبير. وقد اتخذت جامعة قرطبة من تلك الأقواس الحمراء شعارا مرسوما لها.

عدنا ــ بعد تجوالنا ــ من مدينة الزهراء، نردد أبيات ابن زيدون الشهيرة في حبيبته ولادة، والتي كتبها بعد فراره من قرطبة:

إني ذكرتُكِ (بالزهراءِ) مُشتاقا

والأفقُ طلقٌ ومرأى الأرضِ قد راقا

وللنسيمِ اعتلالٌ . في أصائلهِ .

كأنه رَقَّ لي، فاعتلَّ إشفاقا

والروضُ . عن مائِهِ الفضيِّ . مبتسمٌ

كما شققْتَ . عن اللَّبَّاتِ . أطواقا

نلهو بما يستميلُ العينَ من زَهَرٍ

جال النَّدى فيه، حتَّى مالَ أعناقا

ويقول في موضع آخر عن الزهراء:

ويا حبَّذا (الزهراءُ) بهجةَ منظرٍ

ورقَّةَ أنفاسٍ، وصِحَّةَ جوهرِ

وناهيك من مبدًا جَمالٍ ومَحْضَرٍ

وجَنَّةِ عدْنٍ تُطَّبيكَ وكَوْثَرِ

بمرأى يزيدُ العمرَ . طيبًا . ويأنسُ


الرحلة التونسية

أيام جدليان التونسية

مـــا زالـــت أيام جدليان التونسية محفورة في الوعي والذاكرة، فقد وجه لي الشـــاعر التونســـي عبد الكريم الخالقي الدعوة لحضور مهرجان الشعر الدولي ــ خـــيمة علـــي بـــن غذاهـــم للشعر بجدليان، عندما التقينا في المؤتمر العام الثاني والعشـــرين للأدبـــاء والكتاب العرب، ومهرجان الشعر العربي الثالث والعشرين، بالجزائـــر فـــي ديسمبر ٢٠٠٣، وترك لي حرية اختيار شاعر آخر، وشاعرة من الإســـكندرية، تمهـــيدا لتفعـــيل اتفاقـــية التآخي الثقافي بين فرع اتحاد كتاب مصر بالإسكندرية، وفرع اتحاد الكتاب التونسيين ببنزرت. وتحدثت مع بعض الأصدقاء من شعراء الإسكندرية، ووجدت ترحيبا من الشاعر جابر بسيوني، والشاعرة سناء الجبالـــي للمشـــاركة. فأبلغـــت عبد الكريم الخالقي باسمهما. وبالفعل وصلتْ إليَّ الدعوات الثلاث. وبدأنا نستعد للسفر والمشاركة الشعرية.

* * *

فـــي عـــام ١٩٨٥ كانـــت زيارتي الأولى لتونس الخضراء، ضمن الوفد المصـــري للمشاركة في مهرجان الفكر، وكان معي وقتذاك: د. نعمات أحمد فؤاد، والشـــاعرة ملـــك عبد العزيز، ود. عبد العزيز شرف، ود. محمد المنعم خفاجي، والمستشـــار رابـــح لطفي جمعة، والقاص حسني سيد لبيب، وغيرهم. وكان هناك أدباء من وفود عربية أخرى، أتذكر منهم الكاتبة السورية قمر كيلاني.

ولـــم أزل أتذكر كيف كانت حفاوة اللقاء، وأهميته، وأننا قضينا يوما كاملا في مدينة القيروان.

ومـــن يومهـــا وأنا أتوق إلى زيارة تونس مرة أخرى، فهناك أشياء كثيرة فاتتني، ولم أشاهدها في تونس، إلى أن كانت دعوة الخالقي للمشاركة في المهرجان الـــذي لم أكن أعرف شيئا عن اسمه صاحبه "علي بن غذاهم"، فعرفني الخالقي أنه مـــن أبطـــال المقاومـــة الشعبية ضد الاستعمار التونسي في منطقة جدليان، التابعة

لولايـــة القصرين، وأنهم اكتشفوا أنه كان يكتب قليلا من الشعر، فقرروا أن يحتفوا بالــرجل ويبعثوا اسمه من جديد، (فالذكرى للإنسان عمرٌ ثان) فأطلقوا اسمه على هــذا المهــرجان الشعري الذي بدأ محليا ثم صار دوليا، وها هو يصل إلى دورته التاسعة في العام ٢٠٠٤.

حضــر ثلاثتــنا إلــى تونس قبل بداية المهرجان بثلاثة أيام (نظرا لجدول مواعيد الطيران المصري الذي ينظم رحلتين في الأسبوع يومي السبت والثلاثاء). وعــندما خرجــنا يوم الثلاثاء من مطار قرطاج الدولي (وهو أحد المطارات التي أعجبتنــي، وذكرني على الفور بمطار دبي الدولي، ولكنه أصغر مساحةً من مطار دبي)، وجدت أمامي الصديقين عبد الكريم وعماد، في انتظارنا.

بعــد الترحيــب الأخــوي الشديد، والتعرف على أعضاء الوفد المصري الســكندري. توجهــنا إلى شارع باريس، وأقمنا في أحد الفنادق الكلاسيكية الرائعة الــذي يرجع تاريخه إلى عام ١٩١١، هو فندق ماجستيك الذي ذكرني بفندق سيسل في الإسكندرية.

فرحــنا بإقامتــنا فــي وسط العاصمة التونسية بالقرب من شارع الحبيب بورقيبة، الذي يشبه إلى حد كبير شارع الشانزليزيه في العاصمة الفرنسية باريس، وبالقــرب من جامع الزيتونة، ونهج الزيتونة الذي يشبه إلى حد كبير خان الخليلي فــي القاهرة، وزنقة الستات في الإسكندرية. فضلا عن قربنا من مقر اتحاد الكتاب التونســيين، وشارع ابن خلدون وتمثاله بشارع الحبيب بورقيبة، وشارع أم كلثوم، وشــارع جمال عبد الناصر، وشوارع أخرى كثيرة مشهورة، نكاد نعرف أسماءها في مصر.

* * *

كانــت الظاهــرة التــي لفتــت انتباهنا منذ أول وهلة حب التونسيين للفن المصــري، والســينما المصرية، ففي كل مكان نذهب إليه ـــ سواء في المقاهي أو المحــلات أو الشوارع ـــ تتناهى إلى أسماعنا أغاني أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب

وفــريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وغيرهم من أساطين الغناء العربي. بل البعض كــان يسألنا ــ عندما يعرف أننا مصريون من لهجتنا ــ عن الحالة الصحية للفنان أحمــد زكــي. اكتشفت أنهم يحبونه كثيرا . وكانت إحدى دور العرض السينمائي بشــارع ابن خلدون تعرض فيلم التجربة الدينماركية للفنان عادل إمام، وملصقات الفيلم منتشرة في معظم شوارع وسط العاصمة.

قضــينا أيامــنا الأولــى فــي التعرف على الشوارع والأسواق والمحلات التونســية. وفي الفندق تعرفنا على الأكلات التونسية الشهيرة، وعلى بقية أعضاء المهــرجان الذيــن قدموا من الجزائر وليبيا وإيطاليا واليونان ومقدونيا. كان معنا حسين الأحمدي الذي يدرس في تونس دراسات إسلامية ويجيد اللغة العربية وبعض اللغات الأجنبية ويترجم لنا من كلام الشاعر المقدوني أحمد سلمان، أما عبد الكريم الخالقــي فكان يترجم لنا من كلام الشاعرة اليونانية إيفا ليارو، وصديقتها الشاعرة اليونانــية إيليــنا باسار، عندما تتحدثان الفرنسية، أما عندما كانتا تحاولان التحدث بالإنجليزية، فلم نكن في حاجة إلى وسيط.

أهديــت نسخة من مجموعتي الشعرية "بحر آخر" المترجمة إلى الفرنسية، إلى إيفا وإيلينا. قرأتها إيفا ليارو على الفور واستأذنت في ترجمة بعض القصائد من الفرنسية إلى اليونانية، ونشرها في إحدى المجلات اليونانية، فوافقت على الفور.

فــي مســاء الليلة الثانية وبعد اكتمال حضور الوفود، كنا نريد التوجه إلى كافتــيريا الفــنان لطفــي بوشناق، التي سمعنا عنها، غير أننا علمنا أنه لن يكون موجــودا فــي تلك الليلة، فتوجهنا إلى كافتيريا أخرى أقرب، وأمضينا ليلة جميلة، ظنت خلالها إيفا وإيلينا أن الشيشة التي كان يدخنها بعضنا بها ممنوعات، فنفينا هذا الظن، فطلبا أن يجرباها بدلا من السجائر.

فــي صــباح يــوم الجمعة توجهنا بحقائبنا من تونس العاصمة إلى ولاية القصرين، حيث المهرجان الذي ستبدأ وقائعه بعد ساعات قليلة. وسارت بنا السيارة فــي طريق معالمه كلها خضراء في خضراء على خضراء، سواء في السهول أو

المرتفعات أو الجبال، في منظر ترتاح إليه العين وتصفو النفس عندما تشاهده. وكأننا في طريقنا إلى إحدى جنات الله.

* * *

عندما وصلنا إلى بلدة جدليان، وجدنا استقبالا شعبيا رائعا، إذ خرج أبناء المنطقة جميعا في استقبالنا بالرقص الشعبي والموسيقى الشعبية، وآلات العزف التقليدية، فضلا عن الاستقبال الرسمي، فقد كان في مقدمة المسؤولين مندوب معتمدية جدليان محمد الأمين، نائبا عن محافظ أو والي القصرين محمد العيد الكدوسي، ومع الأمين كان هناك مسئولون من وزارة الثقافة والشباب والترفيه، ووزارة السياحة، واتحاد الكتاب التونسيين، وجهات أخرى عديدة.

وبدأت وقائع الاحتفالية التي ظننت أنها ستكون احتفالية عادية، ولكن كل المؤشرات التي أمامي تشير إلى أننا بصدد احتفالية بالفعل دولية، حيث التمثيل الحي لشعراء من بعض دول البحر المتوسط، ودول عربية أخرى وكان من المفروض أن يحضرها شعراء من فلسطين ولبنان وسوريا والسعودية والإمارات، ورومانيا وبولونيا وألمانيا وصربيا ومارتينيك، ولكنهم اعتذروا في آخر وقت، بعد أن طُبعت أسماؤهم في بطاقات الدعوة. وأعتقد أن من لم يحضر منهم خسر كثيرا من الأوقات الجميلة، والصحبة الطيبة، وكرم الضيافة، التي كان من الممكن أن يلاقيها في جدليان، وسبيلته، وتونس العاصمة.

* * *

كان مبيتنا في منطقة سبيلته — التي تبعد حوالي أربعين كيلو مترا عن جدليان وتحتضن الكثير من الآثار الرومانية، التي اصطحبنا إليها أحد الشباب التونسي. عندما سألناه ذات مساء عن مقهى قريب من الفندق أو النُزل الذي كنا فيه، وعندما عرف أننا مشاركون في مهرجان خيمة عليّ بن غذاهم، وأننا أول مرة نزور هده المنطقة، أصرَّ أن يأخذنا في جولة سريعة — في سيارته — لمشاهدة آثار

المـــنطقة وشـــوارعها علـــى أضواء النيون، قبل أن يدلنا على مقهى قريب. وفي الصباح ذهبنا لرؤية الآثار في ضوء الشمس التونسية الحانية.

عدنا إلى جدليان بعد أن زورنا الآثار الرومانية، وشاهدنا ما تركه الرومان منذ القرن الأول الميلادي، وما خلَّفه الإمبراطور جرجير من آثار تركها على حالها الصحابي عبد الله بن الزبير، وبقية العبادلة، الذين هزموا جرجير، وتزوج عبد الله من سبيلته ابنة جرجير، ودخلت في الإسلام.

فـــي جدليان استأنفنا برنامج المهرجان، ثم خرجنا في جولة سياحية جبلية عظيمة الفائدة، فصعدنا المرتفعات، وهبطنا الوديان، وشاهدنا عيون المياه الطبيعية، أو مـــياه الأمطار، التي تروي المنطقة كلها، بناسها، ونباتاتها، وحيواناتها، ومررنا علـــى المراعـــي الطبيعـــية، ورأينا محاصيل كثيرة منها الشاي الأخضر، وبعض الأعشـــاب الطبيعية ذات الفائدة الكبيرة لصحة الإنسان. والتقطنا الصور التذكارية، وكانـــت بعض كاميرات الفيديو تسجل أحداث اللقاء بالطبيعة الخصبة التونسية، في جو صحو وهواء نظيف، خال من الملوثات والعوادم.

* * *

بعـــد انتهاء المهرجان، وانقضاء أيام جدليان، عدنا إلى العاصمة التونسية، وكـــان أمامـــنا يومـــان آخران، قبل موعد إقلاع الطائرة المصرية من تونس إلى القاهرة. فقررنا زيارة اتحاد الكتاب التونسيين الذي يقع قريبا جدا من الفندق بشارع باريس، وهناك التقينا بالشاعر الميداني صالح رئيس اتحاد الكتاب، ورضا الملولي رئيس تحرير مجلة "المسار" التي يصدرها الاتحاد، والطيب الفقيه أحمد المتخصص في أدب الأطفال، والذي التقيته في مؤتمر الجزائر، ومحمد الهاشمي بلوزة، عضو مجلـــس إدارة الاتحـــاد، وكان لقاء طيبا تركنا فيه مع الحب والود، بعض القصائد والمقالات لنشرها في مجلة "المسار". كما زرنا صحيفة الصباح، والتقيت بالصديق الشاعر يوسف رزوقة الذي أصبح المسئول الأدبي بالجريدة، والمشرف على ملحق الجمعة.

ثــم قمــنا بزيارة مبنى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الإلكسو) ومحاولة فهم ما يجري بخصوص المشاركة العربية في معرض فرانكفورت الدولي فــي الســادس من أكتوبر من هذا العام (٢٠٠٤). والتقيت بالصديق القديم الشاعر محمــد أحمــد القابســي الذي أصبح وزيرا مفوضا ورئيس ديوان المنظمة التابعة للجامعة العربية.

اتصــلت بالقابسي على المحمول (بورتابل) الخاص به ليلة حضوري إلى تونــس، فوجدته يرد عليَّ من باريس. وحدد لي ميعاد عودته لكي ألتقي به، وكان الموعــد يــتعارض مــع أيام جدليان، فقلت لا بأس عندما أعود من جدليان أعاود الاتصال. فاتصلت به بعد العودة، ووصف لي مكان المنظمة بشارع محمد الخامس، وبالقرب من السفارة المصرية.

ذهبــت، وكان معي الصديق الشاعر جابر بسيوني، والتقينا بالقابسي الذي رحب بنا ترحيبا شديدا، وذكّرني بأسماء أصدقاء قدامى في تونس، ولكني لاحظت مــدى انشــغاله، وزحمــة مكتبه بالأوراق والأشخاص الذين يدخلون ويخرجون، وعــندما أردت الانصــراف، أبــى ذلك، وأصر على طلب القهوة، وبعد أن شربنا قهوتنا، أردت الانصراف لأنني أحسست أننا نعطله، فنحن لا نعرف كيف نحادثه، ولا هو، ووجدت ــ على مكتبه ــ خطابات من السيد / عمرو موسى ــ أمين عام جامعــة الدول العربية، تنتظر الرد السريع، والموظفون يدخلون ويخرجون، ويريد أن يصــرفهم لــيفرغ لــنا، وكاد ينجح، ولكن يرن جرس الهاتف، وإذا بالمتحدث د.المنجي بوسنينة أمين عام المنظمة، فيسقط في أيدينا جميعا، ويضطر القابسي أن يغادر مكتبه، ليدخل مكتب بوسنينة، ونستأذن في الانصراف، وعندما أراد أن نلتقي مســاء، قلــت لــه: إننا سنغادر تونس بعد ثلاث ساعات من الآن، فأراد أن نغادر المبــنى فــي إحدى سيارات المنظمة، ولكن قلت لــه: لم يبق سوى سويعات قليلة أريد أن أترجل فيها لأودع شوارع تونس الخضراء.

العودة إلى جدليان

عدتُ من الرياض، بعد المشاركة في ندوة "منهج الأدب الإسلامي في أدب الأطفال"، لأجد في انتظاري دعوة من تونس الخضراء للمشاركة في مهرجان "خيمة علي بن غذاهم الشعري" الذي يُعقد في منطقة جدليان التابعة لولاية القصرين، في الأسبوع الأخير من شهر مارس / آذار، سنويا، منذ أحد عشر عاما، وكان لي شرف المشاركة في دورته التاسعة عام ٢٠٠٤ مع الشاعر جابر بسيوني، والشاعرة سناء الجبالي، من الإسكندرية.

على الفور اتصلت بالصديق الشاعر التونسي عبد الكريم الخالقي، مؤسس المهرجان، وأخبرته بالموافقة على حضور فعاليات الخيمة في دورتها الجديدة.

وبدأت أعد عدة السفر إلى تونس الخضراء، وبدأت تتقافز إلى ذهني أيام جدليان التونسية ٢٠٠٤.

اتصلت بالمرشحين معي للمشاركة من شعراء مصر، للتنسيق معهم، والحصول على تأشيرة الدخول، من السفارة التونسية بالقاهرة، التي فوجئت بارتفاع رسومها من ٤٠ (أربعين) جنيها مصريا في عام ٢٠٠٤، إلى ٢٠٠ (مائتي) جنيه مصري في عام ٢٠٠٦، بما يمثل خمسة أضعاف، وهو أمر غير قابل للنقاش بطبيعة الحال، فدفع كل واحد منا رسم التأشيرة صاغرا. وبدأنا نتصل بخطوط الطيران، لنختار منها ما يناسب مواعيدنا وظروف عملنا، فلم نجد مكانا على شركة مصر للطيران، ولكن وجدنا أماكن على الخطوط التونسية، فحجزنا ثلاث تذاكر، واتصلت بعبد الكريم، وأخبرته بميعاد وصولي مع الشاعرتين سناء الجبالي وهالة فهمي، إلى مطار قرطاج الدولي، ليكون في انتظارنا.

تأخرت الطائرة التونسية ساعة عن موعد إقلاعها، وعندما أقلعتْ بدأتُ أتصفح المجلة التي توزع على راكبي الطائرة، وجذبني العدد لأنه يتحدث عن استعدادات تونس لمؤتمر قمة المعلومات، ولكن اكتشفت أنه عدد شهري نوفمبر

وديســمبر ٢٠٠٥، ونحــن في مارس ٢٠٠٦، فسألت المضيفة الحسناء عن العدد الجديــد من المجلة، الذي بالتأكيد سيتحدث عن وقائع المؤتمر، فأجابت أن هذا هو العدد الأخير.

قارنــت بين هذه المجلة، ومجلة "أهلا وسهلا" – منتظمة الصدور – التي توزعهــا الخطــوط الجوية العربية السعودية (التي كانت تحتفل بمرور ستين عاما علـــى إنشــائها، وقت سفري إلى الرياض)، ومجلة "حورس" التي توزعها شركة مصر للطيران.

* * *

هبطــنا في مطار قرطاج الدولي بعد ثلاث ساعات من الطيران فوق مصر والــبحر المتوسط وجزيرة كريت، وبعد خروجنا من المطار وجدت عبد الكريم في المواجهــة، وفـــي رفقته إحدى زميلاته؛ عرفت منه أنها الشاعرة والكاتبة التونسية فاطمـــة الشريف، التي رحبت بنا كثيرا، واتجهنا إلى سيارتها الحمراء، لنتوجه إلى الفندق الذي سنقيم به في وسط العاصمة التونسية لمدة ثلاثة أيام قبل أن نغادرها إلى ولايـــة القصرين، حيث تقام فعاليات الخيمة في جدليان، مسقط رأس بطل المقاومة الشعبية علي بن غذاهم الذي استشهد عام ١٨٦٤.

كانت الأيام الثلاثة فرصة للتعرف أكثر على العاصمة التونسية، خاصة أننا جئــنا في أيام احتفال البلاد بمرور خمسين عاما على الاستقلال، وكانت المصالح والدواويــن والبــنوك والمــدارس وغيرها في إجازة رسمية (عدا المقاهي بعامة، ومقاهي الإنترنت التي كنت أزورها يوميا، بصفة خاصة).

كانت شوارع وسط العاصمة، وخاصة شارع الحبيب بورقيبة وشارع فرنسا وشـــارع بـــاريس، والشـــوارع المحـــيطة أو المتفرعة، مزدانة بالأعلام التونسية الحمراء، ولافتات التهاني، وصور الرئيس زين العابدين بن علي، ومزدحمة بأبناء الشعب التونسي والأجانب أيضا.

بالإضـــافة إلى ذلك، كان المسرح البلدي المجاور للسفارة الفرنسية بشارع الحبيب بورقيبة، يقدم عروضه خارج قاعات المسرح، وداخلها أيضا.

في نهار اليوم التالي لوصولنا تجولنا في منطقة الزيتونة، وكان في صحبتنا عــبد الكريم، والشاعر والتشكيلي السويسري المشارك معنا في الخيمة إيفو برفار، الــذي كــان دائمــا ما ينتحي ركنا، ويفتح كراسة يحملها في يده، ويبدأ في عمل اسكتشــات، أو رسومات تخطيطية لبعض المناظر التي تلفت نظره، وخاصة عندما وصلنا إلى جامع الزيتونة من خلال نهج الزيتونة الذي يحتوي على مئات الدكاكين والمحلات ذات الطابع التراثي التونسي والمغربي، والتي تذكرنا بدكاكين ومحلات خــان الخليلــي التي تفضي في النهاية إلى جامع سيدنا الحسين بالقاهرة، أو زنقة الستات بالإسكندرية التي تفضي في النهاية ــ ولكن على بعد مئات الأمتار ــ إلى مسجد المرسي أبي العباس (المعروف بسلطان الإسكندرية).

فــي الــيوم التالــي ــ الأربعاء ــ بكرنا في الاستيقاظ للذهاب إلى مدينتي سوســة والقــيروان، لــزيارة المعــالم الســياحية والأثرية بهما. ولكن أصر إيفو السويســري علــى الذهاب إلى القيروان فقط، حتى لا يضيع الوقت بين المدينتين. فذهــب وحده، وذهبتُ مع سناء وهالة إلى سوسة أولا، على أمل أن نكمل الرحلة إلى القيروان ثم يعود ثلاثتنا إلى العاصمة.

أول شـــيء فعلـــناه بعد أن وصلنا إلى سوسة، زيارة متحف سوسة، الذي يــؤرخ، عــن طريق الفسيفساء وبعض الفنون والأشكال الأخرى من تماثيل كبيرة وصغيرة وأوان فخارية ونحاسية، وأشكال تراثية مختلفة، إلى فترة الحكم الروماني لــتونس، وللمنطقة كلها، فكان هناك تمثال صغير للإمبراطور هدريان على سبيل المثال، وحكام آخرين، فضلا عن الآلهة القديمة مثل إله البحر بوسيدون، وغيره.

بعــد ذلك قمنا بزيارة المدينة العتيقة أو القديمة، وطوفنا بشوارعها الجميلة الضــيقة النظــيفة، ومحلاتها ودكاكينها التي تشبه محلات ودكاكين الزيتونة، حتى وصلنا إلى البحر.

هـنا انكشـفت لـي سوسة، وقفز إلى الذاكرة قول الشاعر: (أرأيت سوسة والأصيل يلفها في حلة نسجت من الأشواق) أو كما قال.

انكشـفت لـي سوسـة البحرية، فتذكرت الإسكندرية على الفور، وخاصة أحـياءها القديمة التي تقع على البحر مباشرة مثل الأنفوشي ورأس التين والسلسلة. خاصـة أن المكـان الـذي أطل علينا كان هو الميناء حيث ترسو السفن أو تغادر المياه.

تنفسنا هواء البحر، فنسينا أنفسنا، ونادتنا رائحة الأطعمة والأسماك، فدخلنا أحـد المطـاعم، وطلبنا حيتانا (أي أسماكا) فجاءت مشوية، ومعها أطباق الكسكي والسـلطات التونسية. وعندما حدقنا في الساعة وجدنا أن الوقت لن يسمح بالذهاب إلـى القيروان، فرجعنا إلى تونس العاصمة، وأدركنا أنه لا يجوز الجمع بين زيارة مدينتين جميلتين في يوم واحد، فكل مدينة جميلة، تحتاج إلى أكثر من يوم، وبعض المدن الأخرى لا يكفيها شهورا، لتكشف لك بعض مفاتنها، خاصة إذا كانت تونسية.

* * *

عندما عرف الصديق الشاعر محجوب العياري أنني في تونس، أصرَّ على زيارتي لـه، ومشاهدة ولاية نابل التي تبعد حوالي الساعة من العاصمة. فزرته في صباح الخميس بعد زيارة جماعية سريعة لمقر اتحاد الكتاب التونسيين، خلف معهد أو أكاديمـية الموسـيقى بشـارع بـاريس، حيث التقطنا بعض الصور التذكارية، وحصلنا على بعض الإصدارات الجديدة من منشورات الاتحاد.

في نابل قمت بالمرور على قصر الثقافة أو "مركّب الثقافة"، وشاهدت بعض الاستعدادات أو البروفات المسرحية، لبعض الشباب المتحمس للعمل المسرحي من الجنسـين، وبعضـهم كان يمسك بالفرشاة ويطلي قطعا من الأقمشة ـ على أرض الشارع ـ لزوم الديكور.

قضـيتُ وقـتا ممـتعا في مدينة نابل المتوسطية التي آراها للمرة الأولى، والتقيت مع الناقد سهيل المغيربي ـ صديق العياري، في أحد الكازينوهات المطلة

على البحر، وأخبرني العياري أنه في الصيف لا يوجد موضع لقدم في هذا المكان، وكذلــك معظم الأماكن التونسية التي تطل على البحر، مثل الحمامات، وسيدي بو سعيد، وسوسة، وبنزرت، وغيرها.

* * *

عدتُ من نابل إلى العاصمة في حوالي السادسة مساء، لأجد الوفد السوري المتمثل في الشاعرين: نزار بريك هنيدي، وبديع صقور، والوفد الجزائري المتمثل فــي الشعراء: نوَّار العبيدي، وصالح جلاب، وسميرة بو ركبة، وجمال بن عمار، ومحمــد صـــالح بن يعلا، قد وصلوا إلى الفندق، وعرفت أن الوفد الليبي سيتوجه مباشرة إلى جدليان، ويتكون من الشعراء: جميل حمادة (الفلسطيني المقيم في ليبيا) وهلـــيل بيجو، وبلقاسم مزداوي، وحسن بوساحة، بالإضافة إلى أن بعض الشعراء التونسيين الذين يقطنون بعيدا عن العاصمة، سيتوجهون مباشرة أيضا إلى جدليان.

اجــتمع هـــذا العدد من الشعراء، بالإضافة إلى هالة وسناء والخالقي، على شكل حلقة، في بهو الفندق، وكنا أكثر صخبا من غيرنا من الجالسين في صالونات (أنتريهات) البهو، الذين بدأوا ينظرون إلينا ويحاولون أن يستمعوا إلى الكلمات التي نقولهـــا أو نرددها، ليتأكدوا أنها شعر (أم أي كلام؟)، وأن هؤلاء الصاخبين شعراء عرب يجلس بينهم شاعر أجنبي.

سمعت أحد الجالسين من الشباب يقول لزميله: إنهم شعراء. فرد عليه زميله بقوله: العرب كلهم أصبحوا شعراء. وأخذت أفكر في مغزى الرد!!

كان علينا الاستيقاظ مبكرا في صبيحة يوم الجمعة، لكي نتوجه إلى جدليان التي تقع على مبعدة ثلاث ساعات ـــ بالأتوبيسات ـــ جنوبي العاصمة.

انضـــم إلينا مجموعة من الشعراء التونسيين المقيمين في العاصمة والمدن المجاورة، وتحرك أتوبيسان في اتجاه جدليان.

* * *

مظاهر الاحتفال في جدليان غير عادية، وكأنه عرس سنوي ينتظره أهالي البلد، فهناك فرق شعبية، وأناشيد ورقصات للأطفال، ومأكولات شعبية تونسية، وهناك معرض الإعلامية، والمعرض الوثائقي الخاص بالدورات العشرة السابقة لخيمة علي بن غذاهم للشعر، ومعرض الأدوات التقليدية بجدليان، ومعرض الفنون التشكيلية، وغيرها من مظاهر الاحتفال التي دشنها والي (محافظ) القصرين السيد / حسن الآجري، ومعتمد (رئيس مدينة) جدليان السيد / منجي الجويلي، ومدير دار الثقافة السيد / عبد السلام الخالقي، وغيرهم من المسئولين.

استمرت الاحتفالية الشعرية والنقدية ثلاثة أيام: الجمعة والسبت والأحد (٢٤ ـ ٣/٢٦)، وشارك فيها حوالي خمسين شاعرا وناقدا من: مصر وتونس والجزائر وليبيا وسوريا وسويسرا، تحت لافتة أو عنوان "الشعر التونسي والترجمة" الذي من خلاله ناقش المشاركون صدى الترجمة في الشعر التونسي مدة ٥٠ سنة من الاستقلال، والشعر التونسي والثقافة، والشعر التونسي والحوار مع الآخر.

وكان واضحا على الوجوه، ابتهاج المبدعين التونسيين بمبادرة الرئيس زين العابدين بن علي في خطابه بمناسبة أعياد الاستقلال، بشأن أجازة إبداعية للمبدعين خالصة الأجر، مدتها ستة أشهر (قابلة للتجديد) مع المحافظة على المسار المهني والترقية التي قد تستحق للمبدع أثناء حصوله على تلك الإجازة، وفق الضوابط التي ستوضع في هذا الشأن.

• • •

لم تكن أيام جدليان التونسية كلها قراءات شعرية ونقدية فحسب، ولكن كانت هناك قراءات وتأملات في الطبيعة من خلال رحلة جبلية إلى مصيف عين السلسلة بولاية القصرين، مرورا بأبرز المناطق الجبلية بمعتمدية جدليان (غابات فراغة وأم جدور) فضلا عن زيارة الموقع الأثري بسيدي علي البهلول، وسد وادي جدليان بمصاحبة فرقة الفنون الشعبية بجدليان التي أضفت جوا بديعا على الرحلة الجبلية ما بين غناء ورقص وموسيقى شعبية.

حقـــا إنهـــا أيــــام جدلــــيان التونسية، التي غادرناها تاركين أهلها للطبيعة الخضراء، والمناخ الصحي، والشعر الفطري، وعدنا مرة أخرى لتونس العاصمة، ليتذكر كل منا ميعاد مغادرته، وإخلاء الفندق من الشعراء، والعودة مرة أخرى إلى مطــــار قــــرطاج الدولــــي في صحبة عبد الكريم الخالقي، وعادل الجريدي، ومراد العمدوني، وفاطمة بن محمود، وفاطمة الشريف، وكانت دموع الفراق تعلو على أي كلمات وداع ممكن أن تقال.

* * *

لــــم أعد من جدليان التونسية بالذكريات الجميلة وقصائد الشعر التي لم تزل تصــــافح وجدانــــي وخاطري فحسب، ولكن عدت بمجموعة من الكتب والدواوين الشعرية المطبوعة (حوالي عشرين) التي أهدانيها أصدقائي الشعراء والكتاب، أذكر منها:

ديوان "فوضى المراثي" للشاعر الجزائري صالح جلاب، ٢٠٠٦.

ديوان "نقطة في أول السطر" للشاعر الجزائري صالح جلاب، ١٩٩٩..

ديوان "وطن يعاقر الانتظار" للشاعرة التونسية فاطمة الشريف، ٢٠٠١.

"القرية المنسية" ــ قصص قصيرة ــ للشاعر الجزائري نوّار عبيدي، ٢٠٠٣.

ديوان "قصائد منسية" للشاعر الجزائري نوّار عبيدي، ٢٠٠٣.

"الدخان" رواية للشاعر الجزائري نوّار عبيدي، ٢٠٠٣.

ديوان "كاف ونون" للشاعر التونسي علالة القنوني.

ديوان "حديث البلاد" للشاعر التونسي سالم المساهلي، ٢٠٠٥.

أنطولوجيا المسرح التونسي. جمع وتقديم سمير العيادي من منشورات اتحاد الكتاب التونسيين ٢٠٠٥.

فــــي الســــردية التونســــية الحديثة. تقديم عثمان بن طالب، منشورات اتحاد الكتاب التونسيين ٢٠٠٥.

مخـــتارات تونســـية فـــي النقد والفكر، لعثمان بن طالب، منشورات اتحاد الكتاب التونسيين ٢٠٠٤.

في الشعر التونسي الحديث، تقديم أحمد الودرني، منشورات اتحاد الكتاب التونسيين ٢٠٠٤.

دلـــيل الكتاب التونسيين أعضاء الاتحاد، إعداد: صلاح الدين الحمادي، منشورات اتحاد الكتاب التونسيين، ٢٠٠٥.

الأعمال الشعرية (١٩٧٧ ــ ٢٠٠١) للشاعر السوري بديع صقور، ٢٠٠٥.

السيرة الزرقاء ــ قصائد مختارة للشاعر السوري نزار بريك هنيدي، ٢٠٠٤.

ديوان "فاكهة الصلصال" للشاعر التونسي مراد العمدوني، ٢٠٠٦.

ديوان "أسئلة الهذيان" للشاعر الفلسطيني جميل حمادة، ٢٠٠٤.

ديوان "ليلى ترفع أشرعة روحي" للشاعر التونسي سمير العبدلي ٢٠٠٦.

ديوان "الطفل" للشاعر التونسي محجوب العياري، ٢٠٠٤.

ديوان "عيون أجهشت بالقول" للشاعر التونسي عادل الجريدي، ٢٠٠٤.

الرحلة الإماراتية

عائدٌ من دبي الجميلة

تلقيت (في نهاية عام ٢٠٠٢) دعوة كريمة من مجلس إدارة ندوة الثقافة والعلوم، برئاسة المستشار إبراهيم محمد بو ملحة، بمدينة دبي بدولة الإمارات العربية المتحدة، لأتحدث عن "ثقافة الطفل في عصر التكنولوجيا". وعندما اندلعت الحرب الأنجلو أمريكية على العراق فجر الخميس ٢٠ من مارس / آذار الماضي، ظننت أن الحرب ستؤثر على سير الأنشطة الثقافية بدول الخليج العربية عموما. وعندما بدأ يخفت صراخ الصواريخ وأزيز الطائرات وتوغل الدبابات في المنطقة، اتصلتُ بإدارة الندوة لأستوضح الأمر، وهل هم عازمون على إقامة المحاضرة حول موضوع ثقافة الطفل أم أن هناك تأجيلا ما؟. ويجيء صوت الأستاذ بلال البدور - أمين السر العام بالندوة، بأن المحاضرة ستقام في موعدها المحدد لها سلفا، مساء السادس من مايو / آيار بمقر الندوة بشارع الرقة بدبي.

فأخذت أعد العدة، وأقوم بمراجعة بعض الكتب التي تدور حول الموضوع، خاصة التي صدرت بعد صدور كتابي "تكنولوجيا أدب الأطفال" في عام ١٩٩٩. وبالفعل وجدت أكثر من كتاب يتماس مع موضوع المحاضرة، منها على سبيل المثال، كتاب "ثقافة الطفل العربي" لمجموعة من الكتّاب وقد صدر في العام الماضي (٢٠٠٢) عن سلسلة كتاب العربي بالكويت (العدد رقم ٥٠)، وغيرها. فضلا عن ملاحظاتي الإضافية بعد صدور كتاب "تكنولوجيا أدب الأطفال".

المهم أخذت أعد العدة، وأشحذ الهمة، إلى أن جاء ميعاد السفر إلى دبي. فخرجت من الإسكندرية في حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ٥ مايو لأصل - عن طريق مطار القاهرة الدولي - إلى مطار دبي الدولي، في حوالي الثانية عشرة ليلا، لأجد في انتظاري الأخ فهمي إبراهيم، سكرتير الندوة، والسائق الباكستاني هدايت. وقد اصطحباني إلى مقر إقامتي بأحد الفنادق الكبيرة في دبي.

وحتى هذه اللحظة لم أكن قد شاهدت من دبي سوى مطارها الدولي الرائع الــذي لــم أكــن أتوقــع أن يكون على هذه الدرجة من الفخامة والأناقة والجمال والاتســاع، فضــلا عن السرعة العجيبة في إنهاء إجراءات الخروج من المطار، بفضــل مجموعة من الشباب الإماراتي الواعي المثقف الحريص على ترك انطباع حســن فــي ذهن القادمين إلى دبي عن طريق مطارها الدولي. وقد فوجئت حقيقة بوجــود المرأة أو الفتاة الإماراتية تعمل في جوازات المطار مثلها مثل الرجل في الــبلدان التي خرجت فيها المرأة لميدان العمل. وأعتقد أن خروج المرأة للعمل في دول الخليج ربما يسهم في حلول الكثير من المشكلات الاجتماعية لدى المرأة ومن أهمها الفراغ الكبير الذي تواجهه الفتاة بعد الانتهاء من مرحلة التعليم، وجلوسها في المــنزل لتنــتظر من يطلب يدها. إن نزول المرأة، أو خروجها لميدان العمل الذي يناسب طبيعتها، سيجعلها تشعر بأهمية وجودها عضوا فاعلا في المجتمع، تسهم في رقــيه ودفعه إلى الأمام. وأعتقد أنه من هذا المنطلق جاء حرص المرأة الخليجية، ومــنها الإماراتية على الخروج للعمل، ولقد شاهدت بعد ذلك ــ من خلال جولاتي الســريعة للتســوق ــ وما أجمل التسوق في مدينة مثل دبي ــ أن الفتاة الإماراتية تعمل أيضا في الأسواق على ماكينات الحساب، وفي مجالات أخرى متعددة. إنهن يزجين وقت فراغهن في أعمال مفيدة لهن وللمجتمع بعامة. أيضا لاحظت أن المرأة الإماراتية تقود سيارتها بنفسها.

ويــبدو أن عملي السابق بمدينة الرياض السعودية، كان سببا لعقد مثل هذه المقارنــة. لقــد ذهبــت إلــى دبي وفي ذهني النموذج الرياضي (نسبة إلى مدينة الرياض) أو السعودي بعامة. ولكن وجدت أمرا مختلفا.

* * *

فــور اســتيقاظي في صباح الثلاثاء (يوم إلقاء المحاضرة) كان أول شيء فعلــته أن أزحت ستائر حجرة الفندق ــ بالدور التاسع ــ لأرى دبي من عل، أرى خور دبي (جزء من مياه الخليج العربي على شكل نهر).تجري مياهه وسط المدينة،

وأري أيضـــا حســـن تقســـيم المديـــنة ونظافتها المبهرة، ولمعانها الموحي بالأناقة والجمال.

لـــم أخرج من الفندق إلا مساء للذهاب إلى مقر ندوة الثقافة والعلوم بشارع الرقة، وهناك تعرفت على بعض أعضاء مجلس الإدارة، ووجدت الجمهور المثقف الكـــريم الـــذي حضر ليستمع إلى المحاضرة، وبعض الإعلاميين والصحفيين من صـــحف: البيان والخليج والاتحاد وغيرها، فضلا عن مندوبي قناة دبي التلفزيونية والفضـــائية. ومـــن أبو ظبي حضر المستشار الثقافي المصري بالسفارة المصرية الدكتور حاتم قابيل.

قدمنـــي أمين سر عام الندوة بلال ربيع البدور للجمهور، وركز في تقديمه على الأعمال الإبداعية والأدبية التي قدمتها للطفل العربي خلال السنوات السابقة.

ثـــم تحدثـــت بعـــد ذلـــك عن موضوع المحاضرة "ثقافة الطفل في عصر التكنولوجيا" من خلال الأوراق التي حملتها معي، ويبدو أنني أطلت في الحديث فقام البدور بكتابة ورقة صغيرة دفعها إليَّ يقول فيها "باق لك عشر دقائق"، فاضطررت لاختصـــار الأجـــزاء المتبقية من المحاضرة، بما لا يخل بمضمونها. ثم فُتح باب المناقشـــات والتعلـــيقات والمداخلات التي جاءت إضافة حقيقية لما قدمته وتحدثت عنه، والتي عبرت بالفعل عن اهتمام الحاضرين بالموضوع نفسه، والذي عرفت ــ مـــن الشـــاعر الصديق د. شهاب غانم ــ أنه لأول مرة تنظم ندوة الثقافة والعلوم موضوعا عن ثقافة الطفل بعامة.

ثـــم حانت لحظة التكريم، فقدم لي أعضاء مجلس الإدارة درعا فخما باسم الـــندوة، وشـــهادة تقدير متميزة، وبعض مطبوعات الندوة خلال عمرها البالغ ستة عشر عاما.

لقـــد تأسســـت ندوة الثقافة والعلوم بدبي عام ١٩٨٧ لمحاولة تأطير النشاط الثقافـــي فـــي إمارة دبي في مؤسسة ثقافية منتجة تتكامل مع مثيلاتها في باقي مدن وإمارات الدولة، لكي تدفع بعجلة الثقافة إلى الأمام وترقى بحركة الفكر إلى أعلى،

فـــي ظل رعاية ودعم سمو الفريق أول الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، ولي عهد دبي ووزير الدفاع.

ومن أهم وسائل تحقيق أهداف الندوة:

١- طبع ونشر الدراسات والأبحاث والأعمال الثقافية والأدبية في شتى المجالات، والتـــي يعدها أبناء الإمارات أو تلك التي ترتبط موضوعاتها بالبيئة المحلية أو التي يرى مجلس الإدارة أن لها فائدة على المستوى الثقافي، ولو كانت من غير أبناء الإمارات.

٢- تنظـــيم موســـم ثقافي سنوي يتضمن محاضرات وندوات وأمسيات في مختلف الشئون الثقافية والأدبية والعلمية.

٣- تنظيم مسابقات في المجالات الثقافية والأدبية والعلمية، ورصد الجوائز اللازمة لها.

٤- رصـــد جوائـــز ماديـــة وغيرها لأعمال أبناء الإمارات في المجالات الثقافية والعلمية المختلفة.

٥- إعـــداد مكتـــبة للندوة وتنظيمها وتزويدها بالكتب اللازمة في مختلف المعارف والعلوم.

٦- إصدار مجلة ثقافية أدبية جامعة.

٧- عرض النشرات الإعلامية والأعمال الأدبية التي تصدرها الجمعية على وزارة الإعلام والثقافة لإقرارها قبل الإصدار.

ولتفعيل هذه الوسائل، تكونت عدة لجان منها: لجنة الندوات والمحاضرات والمؤتمرات، ولجنة المكتبة والطبع والنشر، ولجنة المسابقات والجوائز .

ولتحقـــيق أهداف الندوة تأسس نادي الإمارات العلمي عام ١٩٩٠ بوصفه أحـــد أنشـــطة الندوة وفعالياتها المهمة. كما شارك في المواسم الثقافية التي نظمتها الندوة منذ تأسيسها نخبة متميزة من رجال السياسة والفكر والأدب من العالم العربي

وغـــيره مـــن بلدان العالم، وشملت محاور عديدة من محاور الفكر الثقافية والدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية والإعلامية والعلمية.

إن ندوة الثقافة والعلوم بدبي، تعد بالفعل وزارة ثقافة مصغرة، خاصة وأنها تســتعد حالــيا لإنشاء مبنى ضخم خاص بها، تضم فيه كل الأنشطة الموزعة على أكــثر من مكان، ولعل من أهم هذه الأنشطة ـــ إلى جانب ما سبق ـــ إصدار مجلة تحمل اسم "حروف عربية" التي صدر العدد الأول منها في أكتوبر / تشرين الأول من عام ٢٠٠٠. ويرأس تحريرها بلال البدور. وتعنى هذه المجلة المتميزة ـــ التي جــاءت ثمرة من ثمار "جماعة الخط العربي" بالندوة، بنشر الوعي بجماليات الخط العربي بين عموم الناس.

* * *

فـــي صباح اليوم الثاني - الأربعاء - تجولت في أنحاء مدينة دبي، وقمت بزيارة سريعة لمدينة الإنترنت، وهي عبارة عن مجمعات إدارية وسكنية كبيرة لكل الشركات والمؤسسات التي لها علاقة بأجهزة الكمبيوتر وشبكة الإنترنت في دبي.

وبعد هذه الجولة في دبي الحديثة تاقت نفسي إلى التعرف على دبي القديمة، فطلبت من الأستاذ بلال البدور الذهاب للأحياء الشعبية أو الأحياء القديمة في دبي، لأشــم عبق الماضي الخليجي، وأتنفس رائحة الأجداد على خليج اللؤلؤ، وتراث ما قــبل الــنفط. فكانت زيارتنا لبيت التراث، والمدرسة الأحمدية، كنموذج للمدارس القديمـــة التـــي منحت العلم والثقافة لأبنائها خلال الفترة من ١٩٢٠ وحتى ١٩٣٢ حيث توقفت الدراسة ـــ في كثير من المدارس في إمارات الساحل ـــ في هذا العام نظرا للظروف الاقتصادية الصعبة التي مرت بها البلاد بعد تدهور وانهيار أسواق اللؤلؤ الطبيعي وكساد تجارته. ولكن عادت الدراسة بعد ذلك في المدرسة الأحمدية فـــي عام ١٩٣٧ وحتى عام ١٩٦٣ حيث انتقلت الدراسة بعد أن اكتظت المدرسة بطلابها، إلى مبنى آخر.

وفي المساء كانت هناك زيارة لمدينة الشارقة بدعوة من الأستاذ عبد الفتاح صبري لزيارة مقر اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، وحضرت هناك ملتقى القصة القصيرة، لعدد من الأدباء الإماراتيين والمصريين والسوريين والفلسطينيين، ولفت انتباهي قصص الأديب المصري عز الدين الأسواني الذي لم ألتق به من قبل، والذي يكتب في صمت ولا يتواصل مع المجلات المصرية.

* * *

في يوم الخميس خرجت لمشاهدة ميناء دبي البحري، وزيارة بعض الأسواق، في دبي الحديثة والقديمة معا، ولمست الفارق الكبير بينهما، إلا أن الأسعار تكاد تكون متقاربة إلى حد كبير. وفي المساء زارني بعض الأصدقاء من الأدباء المصريين الذين يعملون في الإمارات منهم: د. أحمد شمس الدين الحجاجي الذي يعمل أستاذا زائرا في جامعة الشيخ زايد بدبي، والشاعر د. محمد أبو الفضل بدران الذي يعمل أستاذا بجامعة العين، والشاعر حسين القباحي الذي يعمل مدرسا للغة العربية بإحدى مدارس إمارة عجمان. وكان لقاء مصريا حميما تحدثنا فيه عن هموم الأدب والإبداع، وعن رحلة أبو الفضل بدران إلى سوريا للمشاركة في مؤتمر علمي بدمشق خلال الأسبوع السابق لزيارتي لدبي.

* * *

حقا لقد كانت زيارة ثقافية ممتعة، لم تكف معها الأيام القليلة التي أمضيتها في دبي، وحوالي ثلاث ساعات في الشارقة. فقد كنت أتوق لزيارة المجمع الثقافي في أبو ظبي، ذلك المجمع الذي أصبح علامة ثقافية كبيرة من علامات أبو ظبي في الوطن العربي، كنت أتوق أيضا إلى زيارة مركز الدراسات الاستراتيجية، ومركز الشيخ زايد، ومركز جمعة الماجد للتراث، وجامعة العين، وغيرها. وكنت أبحث عن كتاب بعنوان "أدب الطفل الإسرائيلي" أصدره مركز زايد للتنسيق والمتابعة، وقرأت عرضا له في إحدى الصحف الخليجية، ولكن مرت الأيام سريعة. وعدت

إلى الإسكندرية لأشارك ــ في اليوم التالي ــ في مؤتمر ينظمه فرع اتحاد الكتاب بالإسكندرية عن الرواية العراقية الحديثة.

ومـــا بين العراق والإمارات، وما بين بغداد الحبيبة ودبي الجميلة، أمضيت الأيـــام السابقة، وفي عيني دموع وحزن وأسى لما يحدث في العراق، وفي مخيلتي الثقافـــية أفراح وابتهاج لما يحدث من ازدهار وتطور حقيقي على أرض الإمارات عمومـــا، وفي إمارة دبي، وعلى وجه الخصوص في هذا الكيان الثقافي الذي يزداد رسوخا وتألقا يوما بعد يوم "ندوة الثقافة والعلوم".


الرحلة الكويتية

أيامٌ في الكويت

لــم أكن أعرف - ولا أحد غيري - أنني سأكون في الكويت وقت رحيل أميرها الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح، وأنني سأتابع مع أبنائها والمقيمين فيها، لحظة بلحظة، تطورات انتقال الحكم إلى الأمير صباح الأحمد الجابر الصباح، بعد قرار مجلس الأمة الكويتي عزل الأمير سعد العبد الله السالم الصباح، بعد أن تأخر وصــول خطاب التنحي عن الحكم، بسبب ظروفه المرضية التي تمنعه من مزاولة الحكم.

الكــل حمد الله على أن أزمة الحكم في الكويت انتهت على خير، ولم نشهد فــيها أحداثا جساما كما يحدث في بعض الدول الأخرى، ولم نشهد دبابات أو قوات أمــن مركــزي وشرطة في الشوارع، وكان تفعيل مواد الدستور هو الأقرب إلى التطبــيق بعد الخلافات التي سمعنا عنها. أيضا لم يكن هناك ما يمس الحياة اليومية فــي الكويــت أثناء تلك الأزمة، بل إننا كنا نتجول في الشوارع والأسواق بطريقة طبيعــية، وأعتقد أن تلك السحابة العابرة لو كانت في بلد عربي آخر لشاهدنا أشياء أخرى من التحفز للانقضاض على الحكم، لقد حمى الله ثم الدستور، الكويت في هذه الأيام العصيبة التي انتهت على خير، والتي أثبتت فيها الكويت أنها دولة مؤسسات بالفعل.

* * *

ذهبتُ إلى الكويت للمشاركة في الإعداد لطقوس حفل افتتاح مكتبة البابطين المركــزية للشعر العربي، لصاحبها ومؤسسها الشاعر عبد العزيز سعود البابطين، والتي كان مقررا لها أن تفتتح صباح السبت ٢٠٠٦/١/٢١، ولكن وفاة الشيخ جابر، أجلــت حفل الافتتاح، ومن ثم كان لابد لي من العودة ثانية إلى الإسكندرية، لحين تحديد ميعاد آخر لهذا الافتتاح.

وهــذه هـــي المرة الثانية التي أزور فيها الكويت، فقد كانت المرة الأولى للمشـــاركة فـــي مهرجان الكويت الأول للشعر العراقي بالكويت خلال شهر مايو / آيــار ٢٠٠٥، الــذي نظمــته مؤسســة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ولم تكن هناك فرصة للتطواف بالكويت والذهاب إلى شط الخليج العربي، والجلــوس علـــى الكورنيش، أو التجوال في الشوارع ودخول المساجد والمحلات والمطاعم والأسواق، خاصة الأسواق الشعبية، وسوق السمك (أو شبرة السمك، كما يســمى هــناك) والــتفاعل اليومـــي مع الحياة الكويتية، وركوب الأتوبيسات (أو الباصات) والتأمل في وجوه الناس والبشر والفاترينات، وما إلى ذلك.

غير أن كل هذا قد تحقق لي في الزيارة الثانية، نظرا لطولها من ناحية، وحضوري بعض الفعاليات الثقافية من ناحية أخرى، مثل "ندوة تكريم جمعة الماجد" التـــي أقيمــت ضمن فعاليات مهرجان القرين الثقافي لعام ٢٠٠٥، واطلاعي يوميا على الجرائد الكويتية الخمس: القبس، والسياسة، والأنباء، والوطن، والرأي العام.

كمــا شـــاركت - مـــع بعض العاملين في مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي، ومنهم: عبد المنعم سالم وأيمن البادي وأحمد السيد وعمرو وفاطمة وزياد وهانـــي - في المسيرة الخاصة بتوديع أمير الكويت الشيخ جابر التي شاركت فيها أيضـــا الســـيدة ســـعاد عبد الله العتيقي - مديرة المكتبة، ضمن وفد يضم أعضاء الجمعـــية الكويتية للمكتبات والمعلومات، فسرنا وسط جموع المواطنين والمقيمين علـــى ســـاحل الخليج العربي من أول الساحة الخضراء حتى قصر دسمان بمنطقة شرق بالعاصمة الكويتية التي تحتضن أبراج الكويت المشهورة.

• • •

كـــان الصـــديق الشـــاعر عـــبد المـــنعم سالم الذي سبقني للعمل أخصائيا للمخطوطات بالمكتبة، والمحاسب أيمن البادي، في استقبالي لحظة وصولي لمطار الكويـــت الدولـــي ظهـــر الخميس ٢٠٠٥/١٢/٨ وعلى الفور توجهنا إلى محافظة الفروانـــية، القريبة من مطار الكويت، حيث مكان الإقامة مع مجموعة من الشباب المصـــري: ســـعد، وأحمـــد العويضي، وأكرم زوينة، وهاني صالح، الذين رحبوا

بوجـــودي بينهم، فلم أشعر بأية غربة على الإطلاق. ومرت الأيام معهم وكأنني لم أغـــادر مصر، وفي الجمعة الأخيرة قبل مغادرة الكويت، أصروا على إقامة مؤدبة غـــداء ســـمكية، يتوسطها الجمبري (الروبيان) وأرز الصيادية، وأنواع أخرى من الأســـماك، وخجلـــت أن أســـألهم: أيـــن الاستاكوزا، التي لمحتها في شبرة السمك المجاورة لقصر السيف؟

* * *

كان عليَّ أن أزور المكتبة لأتعرف عليها عن قرب، وأتجول فيها، خاصة بعـــد اكـــتمال المبنى وتجهيزه وإعداده للافتتاح الرسمي، وأدخل كل حجرة وقاعة ومكـــان وزاويـــة، انطلاقا من السرداب، وبه المسرح الذي يتسع لحوالي أربعمائة شـــخص، ومجهز بأحدث التقنيات، والقبو الذي يشتمل على مسطح واسع لسيارات العامليـــن، ومـــرورا بالدور الأرضي وبه القاعة الرئيسية وغرفة الوسائل السمعية والبصرية، وقاعة الإنترنت، ومركز التصوير، والديوانية، والمقهى، والمصلى، ثم الـــدور الأول، وبـــه مجموعات كبيرة من كتب الشعر العربي والرسائل الجامعية وركـــن القـــراءة ومكتـــب الخدمة المرجعية، والدور الثاني وبه مكتبة عبد الكريم البابطيـــن، وقسم الدوريات وقسم المخطوطات والكتب النادرة وركن خاص بمكتبة "النجاة الأهلية" وركن القراءة، ومكتب الخدمة المرجعية، أما الدور الثالث والأخير ففـــيه مكاتب الإدارة والموظفين. أيضا عاينت الأقسام الفنية بالمكتبة ذات المداخل الخاصة والتي تتم فيها عمليات التزويد والفهرسة الآلية.

وفـــي كـــل هذه الأدوار كان للتكنولوجيا اليد العليا، سواء أجهزة الكمبيوتر المتصلة بشبكة الإنترنت، أو الوسائل السمعية والبصرية الأخرى، وخاصة ما يتعلق منها بضعاف البصر والمكفوفين.

* * *

استقبلتني مديرة المكتبة السيدة سعاد العتيقي بعد وصولها إلى مكتبها صباح الســـبت ٢٠٠٥/١٢/١٠، ورحبت بي، وعرضت أفكارها بشأن التعاون في بعض الإنجـــازات الإعلامـــية، وعرضتُ أفكاري، وتلاقت أفكارنا، ثم عرفتني على فتاة

كويتـــية هي أسماء جمال ــ الحاصلة على ليسانس الآداب - قسم اللغة الإنجليزية، وماجستير في علوم المكتبات والمعلومات، والتي سوف تشاركني - أو أشاركها - فـــي إنجاز بعض الأعمال الخاصة بحفل الافتتاح، والأعمال الخاصة بموقع المكتبة علـــى شبكة الإنترنت، وتجهيز وطباعة الكتيب الخاص بالمكتبة الذي سيوزع على ضيوف حفل الافتتاح.

ودارت الأيـــام دورتها في الكويت، والتقيت بالكاتب المسرحي المبدع عبد العزيـــز الســـريّع - أميـــن عام مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، والأصدقاء: عدنان فرزات الذي كنت ألتقي به يوميا تقريبا، وعبد العزيز جمعـــة، وجمـــال البيلي، وأحمد الشمري، والشاعر الموريتاني سيدي ولد الأمجاد، ومحمد هلال، وأحمد متولي، وغيرهم.

* * *

ودخـــل علينـــا عيد الأضحى المبارك، وبعد صلاة العيد كنت وعبد المنعم سالم، على موعد مع أخصائي المخطوطات التركي أحمد دورماز، الذي اصطحبنا إلى منزل أحد أصدقائه الأتراك، لنتناول طعام إفطار أول أيام العيد وسط جمع من الـــرجال الكبار والشباب والأولاد الذين أضفوا بهجة وطقوسا إسلامية جميلة للعيد، وكـــان معظم الرجال من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الكويت، ومن الدبلوماسيين بالســـفارة التركـــية، وبعض العاملين في مهن أخرى، تحدثنا مع بعضهم بالعربية والإنجليزية، وكان أحمد دورماز أحيانا يترجم لهم من العربية إلى التركية، أو من الإنجلـــيزية إلـــى التركية. قلت في نفسي لقد كان الأتراك موجودين في مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وكان هناك حاجز ما بينهم وبين عموم الشعب المصري، ولكن فـــي الكويـــت أزيـــل هـــذا الحاجز، وها نحن عبد المنعم وأنا نمثل مصر في هذا الاحـــتفال الصباحي بقدوم العيد، وها نحن نتفاعل مع الأتراك على أرض كويتية. (سبحان الله الذي يغير ولا يتغير).

تناولـــنا ما لذ وطاب من المأكولات التركية والمشروبات، وانقضى الوقت سريعا، وألمح إلينا دورماز أن السيدات يجتمعن في مكان آخر، أو في شقة أخرى، والرجال يجتمعون هنا، وفي كل عيد يتغير المكان من بيت إلى آخر.

مســـاءً ذهبنا إلى شاطئ الخليج العربي بحي السالمية، لنجد زحمة العيد في انـــتظارنا، ووجدنا صعوبة في وجود مكان تصطف فيها السيارة التي كانت تقلنا، وبعـــد وقت وجدناه أمام أحد (المولات) الكبيرة. تذكرت زحمة مصر، أو بالتحديد زحمـــة كورنـــيش الإســـكندرية، وقـــت الصيف، هكذا كان شاطئ الخليج العربي والكافتيريات التي تطل عليه، ولعل سر هذا الازدحام أيضا يعود إلى أن الجو كان معتدلا، بل كان بديعا أيام عيد الأضحى المبارك مما شجع الناس على الخروج إلى الأماكن الفسيحة أو المتسعة التي بدأت تضيق بهم.

* * *

انقضـــت أيـــام العيد، وعدنا إلى المكتبة، لنستعد لحفل الافتتاح الكبير الذي سيحضـــره، ويقـــص شريطه، رئيس مجلس الوزراء (آنذاك) الشيخ صباح الأحمد الجابـــر الصباح، مع جمع غفير من ضيوف المكتبة، وضيوف الكويت، من داخل الوطـــن العربي وخارجه، ومرت الأيام في تحدٍّ صعب حيث هطلت الأمطار بشدة وأفســـدت بعـــض الواجهات التي كانت قد تجملت ليوم العرس الكبير الذي ينتظره جموع الشعراء والأدباء والمثقفين والإعلاميين، واستطاعت الإدارة، وعمال البناء، أن يـــزيلوا آثار الأمطار والمياه ومخلفاتها، في سرعة قياسية، وبعدها سمعنا خبر وفاة أمير البلاد.

كنا نتأهب للخروج إلى المكتبة، صباح يوم الأحد ١٥ يناير / كانون الثاني، حيـــنما رنَّ محمـــول أحد زملائنا، ليخبره المتحدث بخبر الوفاة، وأنه ربما تُعطل دوائـــر العمل في هذا اليوم، ظننا في البداية أنها مزحة من أحد الأصدقاء، ليعطلنا عـــن الخـــروج بعـــض الشيء، فلجأنا إلى التلفزيون الذي أكدت محطاته الأرضية والفضائية جميعا خبر الوفاة. وبدأنا نجري اتصالاتنا، لم يكن هناك رد: هل نذهب إلـــى العمـــل أم لا نذهب؟ ولكن في جميع الأحوال كان علينا الخروج من المسكن

لنرى ماذا سنفعل، فليس من اللائق أن نظل هكذا قابعين بين الجدران. توجهنا إلى المكتبة ليعزي بعضنا بعضا، ثم يصدر القرار بوقف العمل حدادا على رحيل أمير الـبلاد. فعدنـا نـتابع محطـات التلفزيون، ونرسل عبارات التعازي عبر رسائل المحمول إلى إحدى المحطات الفضائية، ثم نقرأ عباراتنا بالشريط السفلي المار على الشاشة، ثم نتابع ما تبثه المحطات من أخبار وصول الرؤساء والملوك والأمراء أو من ينيبون عنهم، الأمر الذي دل على محبة الجميع للأمير الراحل، وتابعنا مشاهد الجـنازة خطوة بخطوة، إلى أن وارى الثرى جثمان الجابر، الذي أطلق عليه أبناء الكويت، أمير القلوب.

* * *

أيـام لا تنسـى فـي الكويت، ذلك البلد الذي يحمل طموحا لا حدود لـه، ورغـبة فـي استعادة الزمن الذي سرقه غزو صدام حسين للبلاد صبيحة الخميس الثانـي مـن أغسطس ١٩٩٠، كنت ساعتها أعمل في مدينة الرياض، ولم أصدق الخبر، ولم أكن أتصور في يوم من الأيام أن تلجأ دولة عربية لاحتلال دولة عربية أخـرى، وكتبـت ساعتها عدة مقالات في جريدة الجزيرة السعودية، وشاركت في أمسـية شـعرية بالـنادي الأدبي بالرياض، نقلها التلفزيون السعودي ونشرت في الجرائد والمجلات السعودية، كان عنوان القصيدة "أعد ما سرقت وإلا ..".

وأحمـد الله أن الأيـام العصـيبة التي عاشتها الكويت، حكومة وشعبا، قد انقضـت، وأن الكابوس انزاح من على صدرها أو كاهلها، لتنطلق إلى آفاق التنمية والتعمـير والمشـاركة الفاعلة في جميع المنتديات الثقافية والاقتصادية والرياضية والفنية العربية، بقوة واقتدار.

وتأتـي مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي لتكون جزءا مهما من هذه المشـاركة أو هـذه المنظومة الثقافية الفاعلة التي تنطلق من الكويت لتخدم مسيرة الأدب العربـي، وتقدم العون للدارسين والباحثين والشعراء على مختلف اتجاهاتهم ومدارسهم.


الرحلة السعودية

العودة إلى مدينة الرياض

حالةٌ من الشجن أصابتني، ودمعةٌ فرت من عيني، عندما أعلن قائد الطائرة، اقـتراب مـيعاد الهبوط في مطار الملك خالد الدولي بالرياض. فها أنذا أعود إلى الـرياض بعـد ثماني سنوات من رحيلي عنها (عام ١٩٩٨) حيث كنت أعمل في إدارة النشر العلمي والمطابع بجامعة الملك سعود.

ثمانـي سـنوات، كنـت أتابع خلالها معظم ما يحدث أو يدور في المملكة العربـية السـعودية، مـن أحـداث وحوادث وتغيرات وتطورات ثقافية وسياسية وعمرانية.

تمنيت العودة لأسير في الشوارع

وفـي كثـير من اللحظات كنت أتمنى العودة فقط لأسير في شارع الوزير وشـارع الخـزان، وشارع الظهيرة، وشارع العطايف، وأزور البطحاء والمنفوحة والسـويقة والديـرة، وأرى بوابة التميري وسوق الذهب وبرج التلفزيون، وحديقة الفوطة التي كنت أسكن أمامها، وأصلي الجمعة في الجامع الكبير الملاصق لقصر المصمك، وأركب إحدى السيارات التي تسير في طريق الملك فهد، متجهة إلى مقر جامعـة الملـك سـعود بالدرعية، وهو الطريق الذي كنت أسلكه سنوات بسيارتي (المـازدا الحمراء) ذهابا وإيابا، بل أركب أحد أتوبيسات النقل الجماعي، وأطوف المدينة من البطحاء حتى الروضة، مرورا بشوارع: الجامعة والستين والأربعين في الملـز، وطريق خريص، أو أركب سيارات الميكروباص (عليا / دلة) وأمر على مبنى الغرفة التجارية الصناعية، ومكتبة تهامة، بشارع الضباب، وأدلف إلى شارع العليا العام، وأهبط أمام مبنى العقارية، وأعرّج على مبنى المركز الثقافي المصري. لقـد مـرَّ شريط الذكريات سريعا، وقفزت الأشياء والشوارع والأحياء والأسواق والمعالم السعودية أمام ناظري، بعد أن أعلن قائد الطائرة أنه حانت لحظة الهبوط،

وأن درجة الحرارة الخارجية ٢٢ درجة، وهو أجمل طقس في مدينة الرياض على مدار السنة.

لحظة المواجهة

ذهبــتُ إلى الرياض ــ بعد ثماني سنوات من الفراق ــ للمشاركة في ندوة "منهج الأدب الإسلامي في أدب الأطفال" التي يقيمها المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإســلامي العالمية بالعاصمة السعودية، بالتعاون مع جامعة الإمام محمد بن سعود الإســلامية، وتُقــام في مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة تحت رعاية الأمــير سلمان بن عبد العزيز ــ أمير منطقة الرياض خلال الفترة من ١ ــ ٣/٢/ ١٤٢٧هــ الموافق ١ ــ ٢٠٠٦/٣/٣م.

ومنذ استلامي دعوة المشاركة عن طريق البريد الإلكتروني، ثم عن طريق الــبريد التقليدي، وأنا أفكر في لحظة المواجهة بيني وبين مدينة الرياض، أكثر من تفكــيري في موضوع البحث نفسه. إلى أن حانت اللحظة المرتقبة، لحظة خروجنا لــيلا من المطار، وركوبنا سيارة الفندق الذي سنقيم فيه بالعليا، والقريب من المقر الجديد لرابطة الأدب الإسلامي العالمية.

برجا المملكة والفيصلية

لاحــظ أصدقاء الرحلة من أعضاء الوفد المصري المشارك بالندوة، وهم: كاتــب الأطفال المعروف عبد التواب يوسف، والدكاترة: عبد الرؤوف أبو السعد، وسعد أبو الرضا، ونعمة عبد الكريم أحمد، وحسن شحاتة، ويحيى خاطر، لاحظوا مدى انشغالي بالطريق، وتأملي للمباني، وتلفتي لكل حجر، وكل مساحة خضراء أو صــفراء نمــر بهــا، وعند دخولنا طريق الملك فهد، أشرأب عنقي طويلا لبرجين كبيرين لم أرهما من قبل في مدينة الرياض، وكانا واضحين تمام الوضوح من أي مكــان وأي اتجــاه. وعرفــت أنهما: برج المملكة، وبرج الفيصلية، على التوالي، وتذكرت أن أرضهما كانت تُحفر عميقا قبيل مغادرتي الرياض، ولكن لم أتصور أن

ما سيُبنى في هذا المكان سيكون بهذا الحجم العملاق، وهذا الارتفاع الشاهق، الذي غطى على ارتفاع عمارات الملكة أو عمائر الملك خالد بشارع الخزان.

بدأنا نقترب من الفندق، وفي كل لحظة تظهر أمامي أسواق ومحلات ومبانٍ ومطاعم لم تكن موجودة، وقت أن غادرت الرياض، ومن ناحية أخرى كانت هناك محــلات وأســواق ومطاعم ومبانٍ محفورة في الوجدان، ولي ذكريات معها، مثل مكتبة العبيكان (التي طبعتْ طبعة جديدة من ديواني الأول للأطفال "أشجار الشارع أخواتــي") ومكتــبة جرير، ومكتبة الشقري، ومكتبة الملك فهد الوطنية وحديقتها، ومؤسسة الملك فيصل الخيرية، وأسواق الكمبيوتر بالعليا، وغيرها.

أنفاسٌ لم تهدأ في الحجرة ١١٣

هـــا أنذا داخل الفندق، وبعد إجراءات بسيطة، أستلم المفتاح الإلكتروني، أو البطاقة الممغنطة التي توضع في مكانها، فتعطي إشارة خضراء، ليفتح باب الحجرة رقــم ١١٣ التــي سأقيم فيها ست ليالٍ وخمسة أيام، فقد وصلنا قبل بداية فعاليات الــندوة بيومين لنتمكن من التقاط أنفاسنا، ولم تكن تهدأ أنفاسي قبل محاولة الخروج ثانــية والذهــاب إلى شارع البطحاء العام، وشارع الخزان، وهما الشارعان اللذان ســكنتُ فيهما عددا من السنوات، ولكن الساعة تقترب من الحادية عشرة والنصف مســاء، وبــدأت حركة المواصلات تهدأ قليلا، فعمدت إلى تليفون الحجرة لأتصل بأصدقائي القدامى من مصريين وسعوديين وفلسطينيين وسوريين وأردنيين ويمنيين وغيرهم.

كــان أول مــن اتصلت به صديقي خليل محمد خليل (الذي أهديته قصيدة "الشاعر والحاسوب" المنشورة بديواني "تغريد الطائر الآلي") ولكنه لم يرد، فاتصلت بـــه على المحمول أو النقّال، أيضا لم يرد، فأدركت أنه نائم نوما عميقا (هكذا كان نومه قبل أن أغادر الرياض)، ولم أكرر المحاولة مع تليفونات الأصدقاء الآخرين، وقلت: الصباح رباح.

بين الميكروباص وسيارة الأجرة (الليموزين)

نهضتُ مـــن نومـــي مبكرًا، وحاولتُ رؤية الشوارع السعودية من شرفة الحجـــرة رقم ١١٣ ولكن لم أستطع رؤيتها جيدا، فالحجرة تطل على شارع جانبي صغير.

بعد تناول الإفطار أغريت أصدقاء الرحلة بالسير في شوارع الرياض قبل أن نزدحم ببرنامج الندوة، فلم يستجب سوى د. عبد الرؤوف أبو السعد، ود. حسن شـــحاتة (الـــذي قضـــى ثلاث سنوات من قبل في حي الملز بجوار فرع الجامعة للبنات).

عندما عرفتُ أنهما يريدان التسوق، أشرتُ عليهما بأسواق البطحاء، وكان فـــي نيتي أن نركب ميكروباص (العليا / دلة) المتجه إلى البطحاء من أمام الفندق، وكـــان الغرض أن أرى المزيد من شوارع الرياض، وأن أشاهد المباني والمحلات ووجـــوه الـــناس على مهل، وهذا ما يحققه ركوب الميكروباص الذي يتوقف كثيرا ليركـــب راكـــب جديد، أو ينزل راكب آخر، ولكن أصر د. شحاتة على أن نركب ســـيارة أجـــرة (ليموزين) ولم يعرف هدفي من ركوب السيارة الميكروباص الذي سيحقق لي متعة المشاهدة والرؤية والتفاعل أكثر مع المكان.

السائق الكذّاب

اتفقـــنا مع سائق سيارة الأجرة (وكان بنجلاديشيا) على مبلغ معين، وركب ثلاثتـــنا وعندما دخلنا شارع البطحاء، قلت له توقف هنا (أمام عمارة المعجل التي ســـكنت إحدى شققها من قبل). وعند نقده المبلغ المتفق عليه (عشرة ريالات)، أراد أن يأخذ أ من حقه (خمسة عشر ريالا)، فأصررنا على دفع المبلغ المتفق عليه، وحدثـــت مشـــكلة معه، وتدخل بعض المارة، واتصل السائق بكفيله السعودي عن طريق الهاتف الجوال، وهو يوهمنا أنه يتصل بالشرطة.

تحسســـت جيبي لأتأكد من وجود جواز سفري، تحسبا لأي موقف، وأخذت الهـــاتف مـــنه لأتحدث مع الشرطة، اكتشفت أن الذي يتحدث معي كفيله السعودي

الـــذي طلب مني دفع الأجرة المتفق عليها للسائق، فقلت له: إن المتفق عليه عشرة ريالات، والسائق يكذب عليك.

لم تنحل المشكلة إلا بتدخل بعض المارة، فدفعنا أزيد قليلا من المتفق عليه، حتى نكسب وقتنا بدلا من هذا الجدال العقيم الذي سببه السائق الكاذب.

همســـت في أذن د. حسن شحاتة، وقلت لـــه: أما كان من الأفضل ركوب ســـيارة المـــيكروباص ذات الـــتعريفة المحددة سلفا (ريالان لكل راكب). فضحك، وطلـــب منـــي أن أدله على محلات متخصصة في بيع البطاطين والألحفة وأغطية السرير الجيدة.

تجولـــنا في المنطقة، وعدنا ثانية في سيارة أجرة، ولم نكن بمفردنا، كانت معـــنا مشـــترواتنا، ولـــم نتفق على مبلغ معين، فقد اتفقنا مع السائق السابق وأخلّ بالاتفاق، ووضعنا في موقف محرج.

دفعنا للسائق الثاني عشرة ريالات، فأخذها شاكرا، وكنا نتوقع منه أن يطلب المزيد، ولم يحدث.

أمسية المركز الثقافي المصري

في المساء كنت على موعد مع أ. عبد التواب يوسف، للذهاب إلى المركز الثقافي المصري بالعليا للمشاركة في أمسية عن أدب الأطفال، تم الإعداد لها ــ قبل ســـفرنا ــ مـــع كـــل من الكاتب الصحفي السيد الجزايرلي، ود. عصام بركات ــ المستشار الثقافي التعليمي بالسفارة المصرية.

تذكـــرت أيام افتتاح ذلك المركز بالرياض، وأمسياتنا الشعرية والثقافية به، وكان أول مستشار له د. حلمي الشاعر، وكان سفيرنا المصري في السعودية آنذاك الدبلوماسي محمد فتحي الشاذلي.

الآن ســـفيرنا المصري بالرياض الدبلوماسي محمد عبد الحميد قاسم، الذي حضـــر أمســـيتنا الثقافية عن أدب الأطفال، وحضر معه أعضاء البعثة الدبلوماسية المصرية، وبعض المستشارين الثقافيين العرب، وعدد كبير من المصريين العاملين

بالـــرياض، وأساتذة الجامعة، واكتشفت أنني أعرف الكثير منهم منذ أن كنت أعمل بالمديـــنة. وكان لمعظمهم تعليقات ومداخلات وإضافات بعد أن انتهى كل من عبد التواب يوسف وأنا من الحديث.

"الجزيرة" وحديث ذو شجون

فـــي الـــيوم التالـــي بدأنا نستعد لحفل افتتاح الندوة بمركز سعود البابطين الخـــيري للـــتراث والثقافة، بحي الصحافة خلف مبنى مؤسسة الجزيرة الصحفية. والحديـــث ذو شـــجون عـــن مؤسسة الجزيرة وإصداراتها الصحفية ومنها: جريدة الجزيرة وجريدة المسائية، اللتان كنت أكتب فيهما خلال السنوات ١٩٨٤ ــ ١٩٩٦ وتوقفت عن الكتابة فيهما، عندما ألمح المحرر الثقافي بأن هناك خطة لتغيير الأقلام والـــتوجهات، وفهمتُ أنه يقصدني، ويقصد قلمي، من وراء هذه العبارة، فلم أسلمه أية مادة صحفية بعد ذلك وحتى الآن.

وزالَ العبءُ من على كاهلي

قـــرأتُ ملخصـــا لبحثي الذي شاركت به في الندوة، وكان بعنوان "التقنيات الرقمـــيَّة وتحقـــيقها لغايات أدب الأطفال الإسلامي"، مساء الخميس ٢٠٠٦/٣/٢، وأعتقدُ أنه لاقى أصداء طيبة، وتعليقات وإضافات، وأسئلة. وأحسست أن عبئا كبيرا زال من على كاهلي، فصحوتُ نشيطًا صباح الجمعة، وركبت سيارة الميكروباص، وذهبتُ للصلاة في الجامع الكبير بالديرة، وتجولت في شارع التميري، وكانت كل محـــلات الذهـــب وغير الذهب به مغلقة، ومشيت في شارع البطحاء العام، أشاهد المبانـــي والمحلات التي كان معظمها مغلقًا، عدا محلات التموينات (البقالة)، حتى وصـــلت إلى منزل صديقي الشاعر د. حسين علي محمد في أول شارع غبيرة من ناحـــية شـــارع البطحاء، وانضم إلينا الكاتب الشاب علي الغريب (المشرف الثقافي لموقع لها أونلاين) وتناولنا طعام الغداء، وتحدثنا في كل شيء، وطلبت من الغريب أن يبحـــث لي عن نسخ من كتابي "معجم شعراء الطفولة في الوطن العربي خلال

القــرن العشرين" في مكتبات الرياض، نظرًا لضيق الوقت، ووعدني بذلك. وتبادلنا بعض الكتب والإصدارات.

اســتمرت أعمــال الــندوة حــتى مساء الجمعة ٢٠٠٦/٣/٣ حيث أعلنت التوصيات، وأسدل الستار على ندوة "منهج الأدب الإسلامي في أدب الأطفال" على أمــل اللقاء في ندوات أخرى، تقيمها الرابطة في أحد مكاتبها الإقليمية الأخرى في استانبول أو عمّان أو الرباط أو القاهرة أو لكنو بالهند، أو إسلام أباد، أو غيرها.

خاطر ياخذ بخاطري

التقيــت صديقي د. أحمد حسن صبرة، الذي يعمل بكلية الآداب ــ جامعة الإســكندرية، والمعار حاليا لجامعة الملك سعود، وأصرّ على استضافتي مع زميل دفعــته د. يحيى خاطر على العشاء، واقترحتُ أحد المطاعم بشارع الخزان القريب من سكني القديم، والذي كنت أتناول طعامي فيه خاصة، عندما أكون بمفردي (بدون عائلتــي). وأصــرّ صــبرة علــى الاحتفاء بنا في مطعم أفخم من الذي اقترحته، واحتكمــنا إلى رأي خاطر الذي أخذ بخاطري، ورجّح كفتي، لما عرفه عن شغفي بهــذا المكــان، فذهبــنا إلى شارع الخزان، ومررنا على مركز الملك عبد العزيز التاريخي ليلا، فلم أر الكثير من معالمه.

المفتاح المكسور والحبس الاختياري

كان عليَّ أن أغادر الفندق صباح السبت، ولكن وجدتني أغادره آخر مساء الجمعــة بعد انتهاء الندوة، حيث اتصلت بصديقي خليل الذي أتي بسيارته (المازدا البيضاء) التي عاصرتُ زمنَ شرائها، ونقلت حقائبي إلى سكنه، بالقرب من مجمع محاكم الرياض بالديرة.

كانــت خطتــي أن أبــدأ صباح السبت تجوالا جديدا في شوارع الرياض، وأذهب إلى السويقة وشارع التميري وما يجاوره من شوارع قديمة، وأحياء شعبية لها رائحتها الخاصة، وعبقها التاريخي، بعد أن يذهب خليل إلى عمله بالجامعة.

صحوتُ مبكرا، رغم أننا سهرنا نستعيد أيام الرياض، ونتذكر أصدقاءنا القدامى، ونجلس أمام النت، ونراسل بعض الأصدقاء السهارى، وندردش معهم عبر برامج الشات.

بعد تناول إفطاري، أخذت استعد للنزول والتجوال والتسوق.

كان خليل قد ترك لي نسخة من مفتاح شقته، وأغلق الباب بمفتاحه من الخارج. وعندما أعلنت عن خروجي بوضع المفتاح داخل طبلة الباب، فإذا بالمفتاح ينكسر داخل الطبلة، وتتبدد كل محاولات فتح باب الشقة من الداخل.

لم أشأ الاتصال بصديقي حتى لا يترك عمله ويعود إلي، ويفتح الباب من الخارج، وفضلت الحبس الاختياري داخل شقته، وجلست أمام النت أرى مواقعي المفضلة، وأتصفح بريدي الإلكتروني الذي زادت رسائله غير المقروءة إلى أكثر من خمسمائة رسالة منذ أن غادرت الإسكندرية صباح الاثنين ٢٠٠٦/٢/٢٧. وقمت بالرد على بعضها، ومسحت الكثير منها، إلى أن عاد خليل من عمله، وعرف ما حدث، وعاتبني لأنني لم أقم بالاتصال به من تليفون شقته.

كان خليل منهكا، فهو لم ينم في الليلة الماضية، وخرج إلى الجامعة مباشرة، وعند العودة مرَّ على سوق السمك، واشترى لنا أسماكا مشوية وأرزًا (صنوايت) مطبوخًا، وانضم إلينا الصديق القديم المهندس صفي الدين زايد (الذي صمم غلاف كتابي "جماليات النص الشعري للأطفال" الصادر عام ١٩٩٦).

عمارة القادسية وتيار الوعي

تركنا خليل ليأخذ قسطا من الراحة، وذهبت في سيارة صفي الدين إلى شارع الخزان، ومررت على العمارة التي سكنت إحدى شققها (كان اسمها عمارة القادسية)، ودلفت إلى المدخل ووقفت قليلا، وبدأ شريط الذكريات وتيار الوعي يعمل أمام المصعد، كدت أركب المصعد، وأضغط على مفتاح الطابق الخامس، ثم أضغط على جرس الشقة رقم ٥٥، ثم تنبهت إلى خطورة الموقف، وأفقت على صوت صفي الدين، الذي يدعوني لنكمل مسيرنا في شارع الخزان.

بعد جولة قصيرة اضطررنا للرجوع لمشاهدة مباراة الزمالك والأهلي على القناة الفضائية المصرية، وقد توقعت أن تنتهي بالتعادل السلبي أو الإيجابي، حتى لا تضيع فرحة فوز مصر بكأس أفريقيا، بين جماهير الناديين الكبيرين، وبالفعل انتهت المباراة بالتعادل السلبي.

لم يزل أمامي بعض الوقت لمعاودة التجوال، فذهبت إلى أسواق المنفوحة القريبة، وابتعت بعض الهدايا، وعدت إلى خليل والبريد الإلكتروني والشات.

معارضة الحساوي

لم أشأ أن أغادر الرياض دون السلام على الأصدقاء والزملاء القدامى بإدارة النشر العلمي والمطابع، وكان بعضهم يريدون أن يمروا علي بالفندق للسلام واللقاء، ولكن أشفقت عليهم أن يحضروا ولا يجدونني، فأنا مرتبط ببرنامج الندوة، ولم أجلس في الفندق كثيرا، لذا أخبرتهم أنني سأمر عليهم صباح يوم عودتي إلى مصر، خاصة أن الطائرة ستقلع بعد الظهر.

استيقظت صباح الأحد مبكرا، ونزلت مع خليل، وذهبنا إلى الجامعة، وقضيت ساعات في لقاء الأصدقاء القدامى من المصريين والسعوديين والفلسطينيين والسوريين والأردنيين والسودانيين والصوماليين والهنود والباكستانيين وغيرهم، وفوجئت أن بعضهم كان يتابع بعض أعمالي المنشورة في المجلات والجرائد وعلى شبكة الإنترنت، وأحدهم أخبرني أنه شاهدني بالقناة الخامسة المصرية (قناة الإسكندرية) وأخبر زملاءه بذلك.

أصرَّ عبد الرحمن راشد الحساوي (أبو بدر) المدير الإداري الذي كان من أكثر المعارضين لتركي العمل، والعودة إلى مصر عام ١٩٩٨، على تناول الغداء في بيته، ولكن أخبرته بأن ميعاد إقلاع الطائرة لا يسمح بذلك. وتعرفت على مدير النشر العلمي الجديد (القوصي). أما د. الدربي المشرف العام على النشر العلمي والمطابع، فلم أتعرف عليه، فقد حان وقت الذهاب إلى مطار الملك خالد الدولي، قبل حضوره إلى الإدارة.

الرحلة المصرية

تاريخ العشق في مرسى مطروح

محافظـــة مطروح (١٦٦ ألف كم٢ = ٢٠% من مساحة مصر الكلية) هي الامتداد الطبيعي الغربي للإسكندرية ــ على ساحل البحر الأبيض المتوسط ــ بدءا مـــن الكـــيلو ٦١ غـــربا، وحتى الحدود المصرية الليبية، في شريط ساحلي مقداره حوالي ٤٥٠ كم إلى الغرب، وعمق قدره ٤٠٠ كم إلى الجنوب.

وعـــادة عندما يفكر معظم أهل الإسكندرية في الاصطياف خارج مدينتهم، فـــإنهم يولـــون وجوههم شطر مدينة مرسى مطروح (عاصمة مطروح) التي تبعد حوالـــي ٣٥٠ كيلو متر غربا، فهي المدينة الساحلية الهادئة، كثيرة الشواطئ، رغم ازدحامها في شهور الصيف، بالليبيين والإسكندرانية، ثم بقية أهالي مصر.

*** شارع الإسكندرية**

والشـــارع الرئيسي في البلدة يسمى شارع الإسكندرية، فهو أطول شوارع مطروح، وأول ما يواجه الداخل إلى المدينة من الناحية الجنوبية، وهو يربط جنوب المديـــنة بشـــمالها، فضلا عن أنه الشارع التجاري الرئيسي في مطروح، يليه في الأهمية شارع الجلاء الموازي لكورنيش مطروح الذي تجمّل، ليصبح نسخة أخرى من كورنيش الإسكندرية بعد تجميله الأخير.

تذكِّـــرُك مرســـى مطروح، بنظافتها وجمالها واتساعها وهدوئها، ورمالها الذهبـــية الـــبكر الممـــتدة علـــى مساحات عريضة، ومياهها الفيرزوية أو الزرقاء الصافية، وكثرة شواطئها، بإسكندرية الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي.

*** شاطئ الغرام وصخرة ليلى مراد**

وقـــد ظلت تلك المدينة مهملة كثيرا، وغير واردة بالذاكرة السياحية، على الـــرغم من شواطئها رائعة الجمال، إلى أن تغنَّت الفنانة ليلى مراد بها في فيلم من

أجمل أفلامها، هو "شاطئ الغرام" مع حسين صدقي ومحسن سرحان وتحية كاريوكا وسميحة أيوب.

تغنّت ليلى مراد بمرسى مطروح فقالت :

يا ساكني مطروح

جنيّة ف بحركم

الناس تيجي وتروح

وأنا عاشقة حيكم

وقـد خلّـد أهـل مطـروح (حوالـي ٢٥٠ ألف نسمة، معظمهم من بدو الصـحراء) الفنانة ليلى مراد وفيلمها الجميل، بأن أطلقوا على أحد أجمل شواطئ المديـنة اسـم "شاطئ الغرام"، وأطلقوا على إحدى صخوره الكبيرة "صخرة ليلى مراد"، وهي الصخرة التي غنّت عليها الفنانة أغنيتها الشهيرة.

* حمّام الملكة كليوباترا

أيضـا هناك "حمّام كليوباترا"، ويقع قبل شاطئ الغرام بمسافة قصيرة، ولم أدر هل الملكة كليوباترا (التي حكمت مصر خلال السنوات ٥١ ـ ٣١ ق.م) ذهبت إلـى مرسى مطروح بالفعل، واستحمّت هناك؟ أم أنه مجرد استغلال أو تخليد لاسم كليوباترا ملكة مصر؟ أو أسطورة من الأساطير المؤسّسة للمدينة، لجذب المزيد من السائحين والمصطافين لتلك المنطقة التي تحمل اسم "حمّام كليوباترا"؟ وهي منطقة لا تصـلح للسباحة نظرا لصخورها المتراكمة داخل المياه الفيروزية، على العكس من "شاطئ الغرام."

*روميل في المغارة البحرية

لا تحمـل محافظـة مطروح إلا قليلا من ذكريات التاريخ، على الرغم من وجودهـا قـبل مديـنة الإسـكندرية بقرون عديدة، وقد سميت في عصر البطالمة "بارتونيوم"، ثم أُطلق عليها اسم "أمُونيا"، ثم سميت "مطروح" ومن هذا القليل، الذي تحملـه "مطـروح" قصة القائد الألماني روميل (١٨٩١ ـ ١٩٤٤) الذي كان قائدا

للقوات الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية، والملقب بثعلب الصحراء، والذي لجأ إلـى مغـارة طبيعية أسفل سطح الجبل بالقرب من أحد شواطئ مرسى مطروح، والـذي سمي بعد ذلك باسمه "شاطئ روميل"، وبجواره يمكن للمصطاف أن يزور هـذه المغـارة البحرية التي تحولت إلى متحف صغير، وأن يرى محتوياته، ومنها بعـض الملابـس العسكرية التي كان يرتديها القائد وبعض جنوده، وبعض أنواع الذخيرة والأسلحة والخرائط، وبعض الأثاث الحربي.

*العلمين ومقابر الكومنولث والألغام

وذكـر الحرب العالمية الثانية، يدعونا إلى تذكر اسم "العلمين"، وهي إحدى المـناطق الـتابعة لمحافظة مطروح، وتبعد عن الإسكندرية غربًا بنحو ١١٥ كم، ودارت بها إحدى المعارك الحاسمة في الحرب، انتصر فيها الجيش البريطاني بقيادة مونـتجمري على الجيش الألماني بقيادة روميل في الأول من فبراير عام ١٩٤٢، ودُفِنَ الكثير من جثث جنود الفريقين (الحلفاء والمحور). وفي شهر سبتمبر من كل عـام يأتـي أهـل الجـنود المدفونين في صحراء العلمين، لزيارة رفاتهم بمقابر الكومنولث، أو المقابر الألمانية والمقابر الإنجليزية.

ومازالت - حتى الآن - توجد ألغامٌ متبقية من سنوات الحرب، وفي بعض الأحيان يرتفع صوت المصريين بإزالة تلك الألغام من صحراء العلمين، أو إعطاء مصـر خريطة الألغام المزروعة في الصحراء لإزالتها أو تفجيرها، حتى لا تهدد الوجود البشري في تلك المنطقة.

وقد قام الروائي إبراهيم عبد المجيد بالحديث عن تلك المنطقة ضمن أحداث روايـته الـرائعة "لا أحد ينام في الإسكندرية"، والتي تناولت فترة الحرب العالمية الثانية، وتأثيرها على مدينة الإسكندرية وما حولها خلال سنوات الحرب، من خلال العلاقة التي نشأت بين الشيخ مجد الدين، وصديقه المسيحي دميان.

يوجـد أيضا بالعلمين متحف حربي شهير به بعض مخلفات الحرب الثانية من أسلحة استخدمها الألمان والإنجليز، وبعض المجسمات أو ما يعرف بالديوراما، وهـي مـناظر دات أبعـاد ثلاثية تجسد بعض العمليات العسكرية، وبعض الجنود وآلاتهم العسكرية، كذكرى لجنون الحرب العالمية.

***من الأساطير المؤسّسة لواحة سيوه**

وإذا انتقلـنا جنوبا، لذهبنا إلى منخفض القطارة (الذي ينخفض ١٣٤ مترا تحت سطح البحر) ثم واحة سيوه التي تبلغ مساحتها ٥٥ كم مربع.

ومن الأساطير المؤسّسة لتلك الواحة أن الإسكندر الأكبر (المقدوني) زارها عام٣٣٢ ق.م، حيث يوجد معبد آمون، وهناك أوحى لـه كهنة المعبد بأنه ابن الإله آمون. بل يقال إن الإله آمون كلّمه، وأعلن أبوّته له، وأنه بشّره بسيادة العالم، وأنه سينتصر في كل حروبه.

وتعـد واحة سيوه من أهم واحات الاستشفاء في مصر، حيث تساعد عملية دفن الجسم في رمالها وتحت شمسها، على الشفاء من أمراض الروماتيزم.

وتكـثر البحـيرات الصـغيرة في تلك الواحة، والعيون التي تختلف درجة عذوبـة مـياهها. وهي تشتهر بالزيتون والبلح. وتربطها بالسلوم ومرسى مطروح الطـرق الصحراوية المعبدة. وقد أسماها الفراعنة، واحة آمون، وأسماها العرب: سـنترية، وفيها شيد أمازيس ــ آخر ملوك الفراعنة ــ معبدا مازالت أطلاله بادية فـوق صخرة أغورمي، وهو المعبد الذي زاره الإسكندر الأكبر من قبل. وهو غير معـبد رمسيس الثاني الموجود بمنطقة أم الرحم الذي تم اكتشافه عام ١٩٤٦ وبناه رمسيس الثاني عند عودته من ليبيا.

***شاطئ عجيبة كعبة العشق**

نعود إلى شواطئ مرسي مطروح الجميلة، والتي من أهمها شاطئ عجيبة، الـذي يعتـبر ــ فـي رأيـي ــ شاطئا عالميا بجميع المقاييس، من حيث الروعة

والجمـــال، وهـــو شـــاطئ يقع في حضن الجبال المرتفعة، والنزول إليه يكون عن طـــريق منحدر طبيعي ضيق، قامت محافظة مطروح بتسويره حتى لا يقع أحد من عليه، في رحلة الهبوط والصعود.

ويوجد بجوار هذا الشاطئ مقابر الدفن الرومانية، وهي تأتي دليلا على أن الرومان عاشوا في هذه البقعة الجميلة.

إن شاطئ عجيبة يعد كعبة مطروح، وقد بدأ يكتسب شهرة عالمية، فالسياح العـــرب والأجانـــب، لا تكـــتمل زيـــارتهم لمطروح، إلا بزيـــارة شاطئ عجيبة، والاستحمام في لسانه الصغير المترامي بين الجبال الشاهقة.

أيضـــا يحلو للعاشقين حفر أو كتابة أسمائهم على صخور عجيبة، فلا تُزال الأســـماء بســـهولة. قال لي أحد زملاء الرحلة: إنه حفر اسمه واسم حبيبته ــ التي أصـــبحت زوجته فيما بعد ــ على صخرة معينة من صخور عجيبة، وفي كل عام لابـــد أن يذهـــب إلـــى مرسى مطروح ويقصد شاطئ عجيبة، ليرى هذه الصخرة، ويتأكد أن الاسمين لا يزالان محفورين عليها. وبالفعل ذهبتُ معهما ورأيت الاسمين والعام الذي حُفرا فيه، وكأنني شاهدٌ على تاريخ هذا الحب على الصخور. وبجوار اســـميهما قـــرأتُ عشرات الأسماء الأخرى، وإلى جوار صخرتهما رأيت عشرات الصخور الأخرى، المحفور عليها أسماء العشاق، وتاريخ العشق.

***سيدي العوّام: المسجد والشاطئ**

قليلة هي المساجد في مرسى مطروح مقارنة بالإسكندرية، وأشهر مساجدها مســـجد "ســـيدي العـــوّام" الذي يقع على الكورنيش أمام شاطئ سيدي العوام. ومن الأســـاطير التـــي تُحاك عن أحد المساجد هناك ــ ولعله يكون مسجد سيدي العوّام نفسه ــ أنه أيام احتلال الإنجليز لمصر، أراد بعض الجنود إقامة معسكر في منطقة جمـــيلة أمام البحر، فلجأ بعض الأهالي إلى الحيلة الدينية، بأنهم ادّعوا وجود رفات أحـــد أولياء الله الصالحين الذي جاء عن طريق البحر، وعاش في تلك المنطقة إلى

أن توفاه الله. وسرعان ما تجمع مئات الأهالي للدفاع عن أرضهم، في صورة وليهم الـــذي جـــاء ســـابحا أو ماشيا على وجه الماء، وسرعان ما شيدوا لـــه ضريحا، واستماتوا في الدفاع عنه، إلى أن اضطر جنود الاحتلال إلى التخلي عن الإقامة في هذا المكان.

*نائب رئيس الجمهورية كان إمامًنا في صلاة الجمعة

عـــندما أدركنا وقت صلاة الجمعة، كنَّا في شاطئ الأبَيّض، وهو من أجمل شواطئ مطروح، بعد عجيبة، وينقسم إلى قسمين: الأول لعامة الجمهور، والآخر ــ وهـــو الأجمل والأهدأ ــ لأفراد القوات المسلحة، وقد استطعنا دخول القسم الآخر، لوجود أحد ضباط الشرطة (زوج زميلة لنا) ضمن فريق الرحلة.

توجهـــنا للمسجد الصغير الذي يتبع مساكن القوات المسلحة بالأبيّض، وبعد ســـماع الخطبة، والانتهاء من الصلاة، فوجئنا بأن الذي كان يؤمنا في صلاتنا، هو السيد / حسين الشافعي ــ أحد أعضاء مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ووزير الحربـــية في أول حكومة للرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٥٤ ثم وزير الشئون الاجتماعية، ثم نائب رئيس الجمهورية في عهد الرئيس جمال عبد الناصر منذ عام ١٩٦١ وحـــتى وفاته عام ١٩٧٠، ثم نائب رئيس الجمهورية في عهد الرئيس أنور الســـادات حـــتى عام ١٩٧٥. وكان قبل وفاته أحد الدعاة الإسلاميين المعتدلين في مصر، فضلا عن كتاباته في العديد من الجرائد والمجلات المصرية والعربية.

*شواطئ أخرى وبلدة آمنة

إلـــى جانـــب الشواطئ السالفة الذكر (شاطئ الغرام، وعجيبة، والأُبَيّض، وروميـــل) هناك شواطئ مطروحية أخرى، نذكر منها: البوسيت، والليدو، ورأس الحكمة، وعلم الروم، والسلام، وأندلسية، وباجوش، وسيدي عبد الرحمن، وغيرها.

وإلـــى جانـــب العلمين ومنخفض القطارة وسيوه، كمناطق أو مراكز تابعة لمحافظـــة مطـــروح، هناك مناطق أو مراكز أخرى أهمها على الخارطة: الحمَّام، والضبعة، وسيدي براني، والسلوم.

إن مرســـى مطـــروح مدينة سياحية واعدة وآمنة، بها الكثير من مقومات الســـياحة العالمـــية، وأهـــم هذه المقومات أهل تلك البلدة الأمناء الطيبين الودودين للزوار والغرباء، فضلا عن الطبيعة الساحرة، والشواطئ الخلابة التي تحدثنا عنها.

***الحركة الأدبية في مطروح**

ولكن أين الحركة الأدبية في مطروح، أين أدباؤها وشعراؤها وكتابها؟

عدد قليل من أدباء تلك المحافظة، لا يتناسب إطلاقا مع مساحتها وعراقتها وأصـــالتها. أذكر من هذا العدد القليل الشعراء: إسماعيل عقاب، وجمال الدربالي، وإبراهـــيم عـــبد الســـميع، ومحمد عزيز الذي رحل منذ عدة أشهر (وهو ابن عم الشاعر الغنائي الراحل مرسي جميل عزيز)، وإبراهيم الخليل، وحسن عبد الجواد، والبهاء حسين الذي نزح إلى القاهرة ليعمل مذيعا بإذاعة صوت العرب.

أمـــا فـــي مجال القصة والرواية، فعندما أراد باحثو مؤتمر أدباء مصر في الأقالـــيم عـــندما عقد في مرسى مطروح منذ حوالي ثلاث سنوات، أن يبحثوا عن قصاصين وروائيين في مطروح لم يجدوا سوى الكاتبة أم العز السنيني ومجموعتها القصصية "تلك".

إلـــى جانب ذلك هناك عدد قليل من شعراء البدو الذين يكتبون أو ينشدون أشعارهم باللهجة البدوية التي من الصعب فهمها دون شرح وتفسير، وهو ما حاوله الناقد د. يسري العزب في بحثه الذي قدمه في المؤتمر المشار إليه.

بلطيم: مصيف لا يزال بخيره

لا تـــزال بلطـــيم نائمـــة فـــي أحضان البحر المتوسط، منذ أن كان يذهب للمصـــيف فيها الملك فاروق، والفنان فريد الأطرش الذي صوَّر فيها فيلمه الشهير "لحـــن الخلـــود"، وغـــيرهما من الساسة والفنانين الذين كانوا يريدون الابتعاد عن صـــخب الإســـكندرية وضوضائها، ومجونها الصيفي. فبلطيم التابعة لمحافظة كفر الشيخ (التي تبعد عن القاهرة مسيرة أربع ساعات بالأتوبيس، أو حوالي ٣٥٠ كيلو مـــترا شمالا) أكثر هدوءا واحتشاما ووقارا من الإسكندرية، وغيرها من المصايف المتوســـطية المصـــرية مـــثل: مرســـى مطروح، رأس البر، جمصة، بور سعيد، العريش.

لا تـــزال بخـــيرها بلطيم، وعلى طبيعتها القروية، حتى بحرها يحمل هذه الصفة القروية، فمياهه تستقبل في حب وعشق مياه نهر النيل الخالد، فتكسبه اللون الرمادي، وكذا رمالها التي لم نر فيها اللون الأصفر، بل هي معجونة بالطمي النيلي الذي أكسب حبات عنبها لونه الأسود المعروف.

فـــي بلطـــيم نجد العنب الأسود والجوافة وقرع العسل والمانجو بالأطنان، وبـــأرخص الأسعار، وكأنها تباع بالمجان. اشترت زوجتي ثلاث حبات ضخمة من قرع العسل بسبعة جنيهات، وعندما عرفت زميلتنا القاهرية ـ عضو اتحاد الكتاب ـ تعجبـــت وقالـــت: اســـتحالة، فالحـــبة الواحدة الصغيرة تباع في القاهرة بعشرة جنيهات.

خمســـة عشر كيلو من الجوافة المطعمة برائحة المانجو (في مشنة واحدة)، تـــباع بثمـــن ثلاثة أو أربعة كيلوات في الإسكندرية، ولكن المشكلة كيف سنحملها، ومتى سنأكلها قبل أن يصيبها العطب؟.

أصـــرت زوجتـــي على الشراء، فلم أملك إلا الاستجابة لرغبتها، وامتلأت رائحـــة شـــقة المصـــيف بشـــاطئ الفنار ببلطيم، برائحة الجوافة المطعمة برائحة

المـــانجو. ولـــم تتســـع ثلاجة المصيف ـــ على كبر حجمها ـــ لكل هذه الكمية من حبات الجوافة التي بدأت أتشممها، وأنا على مدخل العمارة ذي الأدوار الثلاثة التي تأخذ شكل الفيلا (كانت شقتنا في الدور الأخير)، والتي حلت محل العشش الخشبية القديمـــة فـــي كل شواطئ بلطيم، وربما هذا هو التغير الأهم الذي طرأ على بلطيم (وأيضا رأس البر) منذ الأربعينيات والخمسينيات وحتى الآن.

ما أن عدنا إلى منزلنا في الإسكندرية ـــ بعد ستة أيام في مصيف بلطيم ـــ حتى قامت زوجتي بعزل حبات الجوافة المعطوبة (وكانت لحسن الحظ قليلة) وألقت بهـــا في سلة النفايات، ثم وزعت على الجيران الكثير من الحبات السليمة، ثم قامت بعمـــل شـــرائح صغيرة من حبات أخرى ووضعتها في (فريزر الثلاجة). وعندما ســـألتها عـــن الهدف، قالت: شهر رمضان على الأبواب، ومن هذه الحبات نصنع عصيرا رمضانيا. قلت لها: ونعم التدبير المنزلي.

جبل النرجس من أشهر الأماكن في بلطيم، لم نصعده، ولكن كنا نمر أمامه أثناء تجوالنا الليلي بالبلدة الهادئة، التي لا تسهر حتى الصباح مثل الإسكندرية، لذا كـــان زمـــلاء الرحلة يتعجبون أن نترك الإسكندرية في مثل هذا الوقت من السنة، ونأتـــي إلـــي بلطيم، وكنت أقول لهم: رغبتي في أن أتعرف على أماكن جديدة من مصايف بلادنا وشواطئها.

أما عن أماكن الترفيه، فلم يكن هناك سوى سينما بلطيم التي تعرض ثلاثة أفلام دفعة واحدة وفي حفل واحد، من التاسعة مساءً حتى الثانية صباحا. قررنا في اليوم الثاني لوصولنا، دخولها. قام الزميل جاد حسين ـــ المشرف على الرحلة التي أعدتها لجنة العلاقات الإنسانية باتحاد الكتاب برئاسة الزميل حسن الجوخ ـــ بجمع أسعار التذاكر من المشتركين الذين وصل عددهم أكثر من ثلاثين فردا، فاستطاع أن يحصل على خصم جيد.

الأفـــلام المعروضة كانت حسب ترتيب عرضها: السيد العاطفي، والسفارة في العماره، ومعلش احنا بنتبهدل.

كانت السينما الصيفية ممتلئة عن أخرها، فهي المكان الوحيد للترفيه الليلي (فـلا سيرك، ولا مسرح، ولا ملاهي، ولا غيره) ما يهمني في هذه الأفلام الثلاثة كان فيلم عادل إمام "السفارة في العمارة" الذي أثار جدلا كبيرا لدى أوساط المثقفين والشعراء والأدباء في مصر، وبعضهم رفع دعوى قضائية ضد عادل إمام لتهكمه علـى قصيدة "لا تصالح" للشاعر الراحل أمل دنقل التي أصبحت رمز الدعوة ضد الصلح أو التطبيع مع العدو الإسرائيلي.

خرجت من قاعة السينما، وأنا أتساءل: هل الفيلم يدعو إلى التطبيع، أم هو ضـد التطبـيع؟ أحيانا كنت أشعر أنه يدعو دعوة سافرة إلى التطبيع، ولكن نهايته توحـي بأنه ضد التطبيع (مش حانسلم .. مش حانبيع .. مش حانوافق ع التطبيع) وهو الشعار الذي رفعته طوال الفيلم الممثلة داليا البحيري، وكان يستجيب لها أحيانا بطل الفيلم.

لـن نناقش هنا فيلم "السفارة في العمارة" الذي لا يعد ـ فنيا ـ من أفضل أفـلام عـادل إمام، نظرا لعدم توافق سنه مع شخصية المهندس الشاب العائد من الإمـارات الـذي لا يهمـه فـي الدنيا سوى إقامة العلاقات مع النساء، والاهتمام بملابسهن الداخلية. أما فيلم السيد العاطفي فهو يلعب أيضا ـ في بعض مشاهده ـ على وتر السياسة وعلى الموقف من إسرائيل، بينما يعزف فيلم "معلش احنا بنتبهدل" بطولـة أحمد آدم، على نغمة أحداث ١١ سبتمبر ثم الحرب على العراق في حوار، لا يرقى إلى مستوى الفكرة.

خرجـنا مـن قاعة السينما في الثانية صباحا، على وعد بعقد ندوة صيفية بلطيمـية لمناقشة الأفلام الثلاثة في كازينو حمادة الذي يقع في أول شاطئ الفنار، والـذي كـان يحتضـن هذه المجموعة من أعضاء اتحاد الكتاب وأسرهم. تحمس للمناقشة كل من الكتّاب: سعيد الكفراوي، وعلي عيد، وفتحي سلامة، ورفقي بدوي، ونبيل عبد الحميد، وعبد المنعم عوّاد يوسف، ود. يسري العزب، وعادل الخطيب، وغـيرهم. لكن لم تقم هذه الندوة، وإنما دارت أحاديث جانبية حول الأفلام الثلاثة، وخاصة "السفارة في العمارة" فهو الأكثر جدلا.

تقع بحيرة البرلس في الجنوب الغربي لبلدة بلطيم، وقمنا بعمل جولة بحرية تحـت الشمس الملتهبة، في وسط هذه البحيرة التي ذهبنا إلى شواطئها عن طريق (الطفطف) وهو مركبة تشبه الباص (أو الأتوبيس) مفتوحة من جميع الجهات، حيث قمنا بتأجير مركب، وتجولنا به داخل البحيرة الهادئة التي تتميز بوفرة سمكها، لكننا لـم نصـطد مـنها شيئا، فهناك مراكب شراعية كثيرة العدد تجوب أنحاء البحيرة لاصـطياد السـمك وبيعه بأثمان معقولة إلى المستهلكين، أو توريده لتجار السمك الآخرين.

تعد بحيرة البرلس، واحدة من أهم البحيرات التي تشتهر بها مصر، ومنها: مـريوط (فـي الإسـكندرية)، وأدكو (في محافظة البحيرة)، والمنزلة (بالقرب من دمـياط وبور سعيد) والتمساح (في منطقة القناة) وقارون (بالفيوم) وبحيرة ناصر (في جنوب الوادي، وهي بحيرة صناعة نشأت بعد بناء السد العالي).

عدنا من البرلس ـــ بعد أن شاهدنا على الطريق الآلاف من أشجار النخيل الـذي يحمـل عـناقد البلح الأحمر الذي لم يحصد بعد ـــ لنستسلم للهدوء والراحة والـبحر والشاطئ نهارا، ونلتقي ليلا بالسهر والأصدقاء، والبيتزا والفطير المشلتت الـذي تشـتهر به محافظة كفر الشيخ، وخاصة بلطيم، تلك البلدة التي تحاول بكل الطـرق، جذب المصطافين والسائحين إليها، لتصنع من نفسها مكانة على الخريطة السـياحية في مصر، وأعتقد أنها لو حافظت على رخص أسعارها، وطيبة أهلها، وتـنوع محاصـيلها وفواكهها، ونظافة شوارعها، وهدوئها، لأصبحت محط أنظار الكثيريـن، ودخلت ساحة المنافسة الصيفية، خاصة بعد الانتهاء من إعداد الطريق السـاحلي الدولي، الذي يربط سواحل مصر المتوسطية كلها (من بور سعيد وحتى مرسى مطروح) فأصبحت المسافة بين بلطيم والإسكندرية ـــ على سبيل المثال ـــ لا تسـتغرق أكثر من ساعة وربع الساعة فقط. لذا ودعت زملاء الرحلة القاهريين فـي بلطـيم، وقمـت بتأجير سيارة خاصة، ووصلت ـــ مع الأسرة ـــ إلى منزلي بالإسكندرية في أقل من ساعة ونصف الساعة، وعندما اتصلت بهم للاطمئنان على وصولهم للقاهرة، وجدت أنهم لم يغادروا مدينة طنطا بعد.

متحف النوبة

جوهرة سمراء في جنوب مصر

منذ عشرين عاما لم أزر أسوان، وأتجول في شوارعها النظيفة، وأقف على صـــخورها الـــرمادية، وأحجارهـــا الجرانيتية أو النارية، التي صُنعت منها معظم التماثيل و المسلات الفرعونية.

مـــنذ عشـــرين عامـــا لم أر النيل يفيض سحرا ودلالا وعذوبة وجمالا بعد عـــبوره من خزان أسوان، وبوابات السد العالي. ولم أشاهد الوجوه النوبية السمراء الطيـــبة المـــنقوش علـــيها رموز الحضارات المتعاقبة التي مرت على تلك البقعة، وكأنها مرت بالأمس فقط.

نعم كانت هناك رحلة نيلية سريعة إلى مدينتي الأقصر وأسوان منذ سنوات، لـــم تتح لي فرصة مشاهدة أسوان ومعالمها وآثارها وجبالها ومتاحفها، مثلما حدث منذ عشرين عاما، حيث استضافت شركة كيما، بعض أعضاء هيئة الفنون والآداب والعلـــوم الاجتماعية بالإسكندرية، للمشاركة في مهرجان أدبي وشعري، فذهبنا إلى هـــناك بقطار مزود بعربات النوم الدولية، وقطعنا المسافة التي تتجاوز ألف ومائة كـــيلو مـــتر من الإسكندرية إلى أسوان ــ مرورا بالقاهرة ــ في يوم ونصف يوم تقريبا. وكانت هي المرة الأولى التي أزور فيها أسوان، وهناك رأيت أدباء أسوان ــ الذيـــن كنـــت أقـــرأ لهم من قبل ــ حجاج الباي، ومدثر سليم، وفنجري التايه، ومحمد هاشم زقالي، والمترجم القدير سيد جاد، وغيرهم من الأدباء، وكانت فرصة حقيقية لمشاهدة السد العالي بعد أن تابعنا معركة جمال عبد الناصر ومعركة مصر لبـــنائه، وخـــزان أســـوان، ومعبد فيلة، وجزيرة النباتات، وقبر أغاخان، والمسلة الناقصـــة أو المســـلة المطـــروحة أرضا التي لم يستطع المصريون القدماء رفعها لضخامتها وثقلها الكبير (حوالي ٤٤ مترا طولا وثلاثة أمتار عرضا)، فتركوها في

مكانهـــا الأرضـــي قـــبل أن تُرسم عليها النقوش، أو يُكتب عليها نص هيروغليفي مقدس.

ولعـــل هناك تفسير آخر لعدم انتصاب هذه المسلة، فالمصريون الذين نقلوا حجـــارة الأهـــرام وشيدوا المعابد الضخمة، ونقلوا الكثير من المسلات المماثلة، لم يقفـــوا مكتوفي الأيدي أمام نقل هذه المسلة الأرضية، ولكني أعتقد أن الحاكم الذي أمر بصنع هذه المسلة، رحل عن الدنيا، ولم يهتم خليفته أو من جاء بعده بأمر هذه المســـلة، وتـــركها على حالها قبل أن يكتمل بناؤها، أو أنه حدثت إغارة على تلك الـــبقعة المصرية النوبية ــ كما كان يحدث في العادة ــ من قبل أحد الجيوش التي اســـتولى قائدها على المنطقة، فأهمل أمر المسلة، وتركت على حالها. وهو الأقرب إلى الاحتمال.

المهـــم أنني عدت لزيارة أسوان مرة ثانية مع أفراد أسرتي، وقضينا أربعة أيام في ربوعها، وتحت شمسها الشتائية الدافئة، ووسط زحام الأجانب الذين أتوا من المشرق والمغرب، وتعرفت في مقهى شعبي على مجموعة سياحية من ألمانيا، أتوا إلـــى أســـوان مباشـــرة، دون أن يمروا على القاهرة أو الأقصر، أو الإسكندرية، وفضـــلوا أن يـــبدأوا زيارة مصر من الجنوب، وليس من الشمال. قالت لي سائحة مـــنهم، أنهم يبدأون بأسوان في يناير / كانون الثاني، ثم يصعدون إلى الأقصر، ثم إلى القاهرة، وبعدها يذهبون إلى الإسكندرية لزيارة مكتبتها الشهيرة. فكانت فرصة لأعطيها أرقام هواتفي بالإسكندرية، لنلتقي ثانية على حوض البحر المتوسط بعد أن التقينا على حوض النيل، وفرحت بذلك.

لـــم تكن هناك فرصة لزيارة معبد أبي سمبل الذي يبعد حوالي ٢٨٠ كيلو مترا جنوبي أسوان، فالذهاب إليه يحتاج إلى رحلة أخرى بالطائرة، وعند مغادرتنا مطـــار أســـوان الدولـــي في طريق العودة إلى مطار القاهرة، شاهدت أفواجا من الســـائحين الأجانب (لم يكن بينهم السائحة الألمانية الصديقة) يقفون في طابور أمام اللوحة المكتوب عليها "أبو سمبل"، في انتظار حضور موظف الطيران الذي يراجع

أوراقهم وأوزان حقائبهم وتذاكر سفرهم إلى أبي سمبل. أما نحن فقد توجهنا إلى أسفل اللوحة المكتوب عليها "القاهرة"، إيذانا بانتهاء الرحلة والعودة إلى مطار القاهرة (صالة الرحلات الداخلية) ثم الإسكندرية.

ما بين الرحلة الأسوانية الأولى، والرحلة الأسوانية الأخيرة، عشرون عاما من الشوق والحب لأهل هذا البلد الطيب.

لم ألاحظ تغييرا كبيرا في أسوان سوى إضافة متحف النوبة، وملاهي "بكار لاند" حيث استفاد أصحابها من الشهرة المدوية للمسلسل التلفزيوني الرمضاني "بكار" الذي تدور معظم أحداثه في أسوان، وأطلقوا اسم بكار على الملاهي.

أما متحف النوبة فقد بدأت دراسات إنشائه في أوائل الثمانينيات من القرن المنصرم، بواسطة لجان من المجلس الأعلى للآثار واليونسكو والخبراء المصريين بالجامعات المصرية، وافتتح منذ سنوات قليلة، ضمن خطة "متاحف مصر والقرن ٢١" التي وافق عليها المجلس الأعلى للآثار بجلسته في ٤ ديسمبر / كانون الأول عام ١٩٩٥.

يقول الفنان فاروق حسني وزير الثقافة المصري عن هذا المتحف لحظة افتتاحه: "يوما بعد يوم يتزايد الاهتمام بالنوبة، تلك الحضارة التي لم تبُح بعد بكل أسرارها ودخائلها، ولذا كان اهتمامنا بالحفاظ على تراثها الغني، والعمل على تخليده في هذا الصرح الجديد "متحف النوبة".

أما الفنان التشكيلي د. أحمد نوار رئيس قطاع المتاحف بالمجلس الأعلى للآثار فيقول عن متحف النوبة: "صمم المتحف على أساس تحقيق التكامل مع البيئة المحيطة، وأن يكون تكوينه المعماري متناسبا مع طبيعة المنطقة الأثرية، ومتناغما مع الموقع العام بأسلوب المستويات المتدرجة التي تتوافق مع الطبيعة الخاصة ذات الأرض المتعددة المناسيب، مع الأخذ في الاعتبار طبيعة المناخ الخاص لمدينة أسوان في معالجة الواجهات لتخفيف دخول الضوء الشديد والحرارة".

ولحسن الحظ أن هذا المتحف يقع خلف فندق كلابشة الشهير الدي كنت أقيم فــيه مـــع عائلتـــي. لـــذا ذهبـــنا إلـــيه صباحا، فرأينا جموعا غفيرة من الأجانب والمصـــريين، وأهل أسوان والمناطق المحيطة بها، وعرفنا أن سعر الدخول أربعة جنـــيهات للمصريين، مع منح تخفيض ٥٠ % للطلبة (أي جنيهين في حالة وجود كرنيه أو بطاقة الطلبة) وخمسة وثلاثون جنيها مصريا للأجانب. فقررنا الذهاب إلى المـــتحف في الفترة المسائية، ظنًا منا أن الزحام سيكون أقل في تلك الفترة، فوجدنا الـــزحام نفســـه، فوقفـــنا في طابور طويل، وعندما اقتربت من شباك التذاكر، كان ورائـــي بعـــض الأجانـــب، فأراد منظم الطابور، أن يجامل هؤلاء الأجانب، بأن يخـــرجوا من الطابور، ويتقدمون عليَّ (فهم يدفعون أكثر من المصريين) فرفضتُ هـــذا الأسلوب، وقلتُ لهذا الموظف: إن الأجانب ملتزمون بالطابور، ولم يبدوا أي امتعاض من ذلك النظام، ونحن عندما نسافر إلى الخارج نلتزم بالطابور أيضا، فهذا هـــو النظام السليم المتبع في كل الدول المتحضرة، وأنت بفعلتك تلك تسيء للنظام المعمول به في بلاد الدنيا. ورفضتُ أن يتقدمني السائح الأجنبي.

لـــم أدر هل فهم السائح الأجنبي كلامي الموجه للموظف، أم لا؟ ولكنه في الوقت نفسه، رفض ـــ بأسلوب مهذب ـــ عرض الموظف أن يتقدم الواقفين قبله في الطـــابور، فما كان مني إلا أن التفت للوراء، وشكرت هذا السائح الأجنبي الملتزم بسياسة الطابور، فشكرني بدوره.

* * *

يقـــع مـــتحف النوبة على مساحة تبلغ خمسين ألف متر مربع، منها سبعة آلاف مـــتر مربع مقام عليها مبنى المتحف، وثلاثة وأربعون ألف متر مربع للموقع الخارجـــي والعـــرض المكشـــوف. وخصصت نصف المساحة المقام عليها مبني المـــتحف، لقاعـــات العرض المتحفي الداخلي، والنصف الآخر للمخازن والترميم، وإدارة البحوث، وأماكن الإدارة، والخدمات العامة.

ولعلـنا نتسـاءل عن معنى كلمة "النوبة"؟ وهناك الكثير من التفاسير لهذه الكلمـة التـي تطلق على المنطقة الممتدة بين أسوان شمالا حتى مدينة الدبة قرب الجندل الرابع جنوبا، وهي بذلك تعد بمثابة حلقة الوصل بين شمال الوادي وجنوبه فـي مصر، وشمال السودان. ويعتقد البعض أن اسمها مشتق من الكلمة المصرية القديمة "نبو" أي الذهب، وفي هذا التفسير إشارة إلى مناجم الذهب التي اشتهرت بها المنطقة قديما.

وتنقسم هذه المنطقة إلى: وادي النيل والصحارى، وظهرت إلى الوجود في عصـور مـا قـبل الـتاريخ، وتشير الكشوف الأثرية الحديثة إلى مدى الارتباط الحضاري الذي جمع سكان وادي النيل، جنوبه وشماله خلال الحقب الزمنية المديدة التي تعرف باسم العصر الحجري القديم، حيث تنقلت بين جنباته جماعات اعتمدت في عيشها على صيد الأسماك وصيد الحيوانات البرية مثل: الغزلان والظباء والفيلة والزراف وغيرها.

أمـا فـي العصر الفرعوني، فقد التحمت النوبة مع عصر بداية الأسرات خلال السنوات (٣١٠٠ ــ ٢٧٠٠ ق.م) وعصر الدولة القديمة (٢٧٠٠ ــ ٢٢٠٠ ق.م) ومـا تلاهـا من عصور، وخاصة عصر الدولة الحديثة (١٥٥٠ ــ ١٠٧٠ ق.م) والعصر الكوشي (٧٨٠ ــ ٥٩٣ ق.م). كما مرت النوبة بالعصر المـروي (٥٩٣ ق. م ــ ٣٥٠ م) حيث كانت مروى ــ التي تقع على الضفة الشرقية للنيل بين الجندلين الخامس والسادس في المنطقة التي تعرف حاليا باسم بوتانا ــ عاصمة تلك المملكة.

وقد امتد نفوذ البطالمة الذين حكموا مصر بعد دخول الإسكندر الأكبر، وبعد وفاته في بابل عام ٣٢٣ ق.م إلى جنوب البلاد وبسطوا نفوذهم على النوبة، والحال نفسه بالنسبة للرومان بعد أن تحولت مصر إلى ولاية رومانية بعد هزيمة كليوباترا السابعة في موقعة أكتيوم البحرية عام ٣٠ ق.م على يد أوكتافيوس أغسطس.

أيضـــا دخلـــت الـــنوبة فـــي الديانة المسيحية، بعد أن انتشرت في مصر وأصبحت الديانة الرسمية عام ٣٨٠ م، فأغلقت معابد الآلهة في مصر والنوبة، بما في ذلك معبد إيزيس في فيلة.

وعــندما دخــل الإسلام مصر عام ٦٤١ م تحولت النوبة أيضا إلى الديانة الإسلامية، واعتنق كثير من النوبيين الدين الإسلامي.

أما النوبة في العصر الحديث فيبدأ تاريخها مع غزو العثمانيين لمصر عام ١٥١٧ م، ووصل جنود من البوسنة إلى النوبة، واستقر بعضهم بها، وتزوجوا من نوبــيات وتناســلوا، لذا نلاحظ أحيانا وجود نوبيين يتميزون ببشرتهم البيضاء من سلالة هؤلاء البوسنيين.

وعندما تولى محمد علي حكم مصر اهتم بالنوبة، وتطلع إلى فتح السودان، وجــند النوبييــن والســودانيين فــي الجــيش المصري النظامي. بعد ذلك اهتمت الحكومــات المتعاقــبة ببناء خزان أسوان وتعليته أكثر من مرة، الأمر الذي أفزع الكثيريــن من علماء الآثار المصرية، فأرسلت حملات لتسجيل الآثار والبحث عنها في كل المواقع المهددة بالغرق، ثم جاء بناء السد العالي على بعد حوالي سبعة كيلو مترات جنوب سد أسوان، فقادت منظمة اليونسكو حملة دولية في ٨ مارس / آذار عــام ١٩٦٠ لإنقــاذ آثار النوبة واستجابت الهيئات الدولية لتلك الحملة، وتم إنقاذ معبدي فيلة وأبو سمبل وبقية معابد النوبة، بنقلها وإعادة تركيبها في مناطق أخرى، بعيدة عن الغرق.

* * *

لقــد ترك كل هذا التاريخ الطويل والممتد على عمر الزمان بصماته القوية علـــى الفن الشعبي النوبي من أشكال المباني والأثاث والصناعات والفنون والحلي والأزياء، وكذلك أشكال الفن التعبيري كالموسيقى والرقص، وألوان التعبير الأدبي مـــن قصـــص وروايـــات وأشـــعار، وأيضا انطبع كل هذا على العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية.

ويأتـي مـتحف الـنوبة ليخلد في جنباته وأركانه كل هذا التاريخ والفنون والأعـراف مـن خـلال التماثـيل والمنحوتات والنقوش والمومياوات والأدوات واللوحـات الـتذكارية وشـواهد القبور والجداريات وخلافه من خلال سبعة عشر مـنطقة للعـرض مرتبة زمنيا، وتشمل: منطقة بلاد النوبة، والبيئة النوبية، ونشأة وادي النـيل، وعصر ما قبل التاريخ، وحضارة العصر الحجري الحديث، وعصر الأهـرامات، والعصر النوبي الوسيط، ومملكة كوش النوبية، والامتداد الحضاري المصـري فـي الـنوبة، والأسرة ٢٥، ومملكة مروى، والعصر المتأخر، والنوبة المسيحية، والنوبة الإسلامية، ومنطقة الري، والحملة الدولية (اليونسكو) لإنقاذ آثار النوبة، وأخيرا قسم التراث الشعبي.

ومـن خلال مناطق العرض نرى على سبيل المثال: تمثال الملك رمسيس الثانـي، ومقصـورة قصـر إبريم، ونموذج لمعبد فيلة، ولوحة حجرية لأمنحتب، ومقصـورة الـبابون والعقـرب، ولوازم وحليات للخيول، وشواهد بعض القبور، وتمـثال للـبا (الـروح) وتمثال أمرديس، ولوحة بسماتيك، ولوحة حجرية لتانوت آمـون، ونمـوذج لمقبرة إسلامية، والساقية والشادوف، وهيكل عظمي من وادي الكوبانية، ونموذج لدفنة نوبية، وتمثال الملك خفرع، وغيرها.

أمـا في الموقع العام والعرض المكشوف، فنرى ضريح السبعة والسبعين ولـيا، وأضرحة إسلامية، ونموذجا للبيت النوبي الحديث، ولوحة بسماتيك، ومسلة علـى شـكل عمـود، وتمثال أسد، وعمود مرنبتاح، وتابوت كبش، وتمثال سناو، وتمثال جندي روماني، وبعض الآثار الإسلامية، وغيرها من القطع الأثرية.

وكنـت أود مشـاهدة لوحات وأعمال الفنانين النوبيين المحدثين إلى جوار الآثار القديمة، في متحف النوبة، على غرار ما نشاهده في المتاحف العالمية، مثل اللوفـر في باريس على سبيل المثال. ولعل إدارة المتحف تخصص قاعة أو جناحا للفن التشكيلي النوبي الحديث، تعرض فيه أهم أعمال هؤلاء الفنانين.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

نبذة تعريفية عن الكاتب

- الاسم: أحمد محمد فضل شبلول .
- اسم الشهرة: أحمد فضل شبلول .
- مواليد الإسكندرية ١٩٥٣/٢/٢٣ .
- حاصل على بكالوريوس التجارة ـ شعبة إدارة الأعمال من جامعة الإسكندرية ١٩٧٨ .
- شاعر وباحث .
- عضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر .
- عضو مجلس إدارة هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية .
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية .
- نائب رئيس اتحاد كتاب الإنترنت العرب .

مؤلفاته

أولا : الشعر:

١ ـ مسافر إلى الله ١٩٨٠ ـ سلسلة كتاب فاروس بالإسكندرية.

٢ ـ ويضيع البحر ١٩٨٥ـ سلسلة المواهب الصادرة عن المركز القومي للفنون التشكيلية التابع لوزارة الثقافة بالقاهرة.

٣ ـ عصفوران في البحر يحترقان ١٩٨٦ (بالاشتراك مع الشاعر عبد الرحمن عبد المولى) ـ سلسلة الإبداع العربي بالهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

٤ ـ تغريد الطائر الآلي ـ طبعتان. الأولى عن سلسلة أصوات معاصرة بالزقازيق ١٩٩٦. الطبعة الثانية عن الملتقى المصري للإبداع والتنمية بالإسكندرية ١٩٩٩.

٥ ـ الطائـر والشـباك المفـتوح ١٩٩٩ عـن منارة الإسكندرية للنشر والتوزيع بالإسكندرية.

٦ ـ إسكندرية المهاجرة ١٩٩٩ عن اتحاد الكتاب ودار زويل للنشر بالقاهرة.

٧ـ شمس أخرى .. بحر آخر. ٢٠٠٠ المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة

٨ ـ المـاء لـنا والورود. ٢٠٠١ سلسلة كتابات جديدة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

٩ ـ بحـر آخـر ٢٠٠٣ (مخـتارات شعرية مترجمة للفرنسية) ترجمة: شيرين محمود. الدار المصرية للنشر والتوزيع بالإسكندرية.

١٠ ـ بيـن نهريـن يمشـي ٢٠٠٥ سلسـلة الإبداع الشعري المعاصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

ثانيا: أدب الأطفال:

١ ـ أشـجار الشارع أخواتي ١٩٩٤ ـ شعر ـ دار البشير للنشر والتوزيع بعمان الأردن بالتعاون مع رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالرياض.

٢ ـ حديـث الشـمس والقمر ١٩٩٧ ـ شعر ـ سلسلة قطر الندى بالهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة.

٣ ـ بـيريه الحكـيم يتحدث ١٩٩٩ (تبسيط بعض أعمال توفيق الحكيم للصغار) سلسلة عين صقر بالهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة

٤ ـ طائـرة ومديـنة ٢٠٠١ ـ شعر ـ سلسلة قطر الندى بالهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة.

٥ ـ عائلـة الأحجـار ٢٠٠٣ ـ بحث مبسط ـ سلسلة قطر الندى بالهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة.

ثالثا: الدراسات الأدبية والنقدية

١ ــ أصوات من الشعر المعاصر ١٩٨٤ عن دار المطبوعات الجديدة بالإسكندرية

٢ ــ قضــايا الحداثة في الشعر والقصة القصيرة ١٩٩٣ عن هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية.

٣ ــ جماليات النص الشعري للأطفال ١٩٩٦ عن الشركة العربية للنشر والتوزيع بالقاهرة .

٤ ــ أدبــاء الإنترنــت .. أدبــاء المستقبل (ثلاث طبعات) الأولى ١٩٩٧ عن دار المعــراج للنشــر والــتوزيع بالــرياض، والثانية عن الشركة العربية للنشر والــتوزيع بالقاهــرة ١٩٩٩. والثالــثة عن دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع بالإسكندرية ١٩٩٩ .

٥ ــ مــن أوراق الدكتور هدارة ١٩٩٨ عن سلسلة كتاب فاروس للآداب والفنون بالإسكندرية .

٦ ــ أصــوات ســعودية في القصة القصيرة ١٩٩٨ عن دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع بالإسكندرية .

٧ ــ نظرات في شعر غازي القصيبي ١٩٩٨ بالاشتراك مع الشاعر أحمد محمود مبارك، عن دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع بالإسكندرية .

٨ ــ أدب الأطفــال فــي الوطن العربي ــ قضايا وآراء – ١٩٩٨ عن دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع بالإسكندرية .

٩ ــ تكنولوجــيا أدب الأطفــال (البحث الفائز بالجائزة الأولى من المجلس الأعلى للــثقافة ــ فرع الدراسات الأدبية واللغوية ١٩٩٩). دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع بالإسكندرية.

١٠ ــ الحــياة فــي الــرواية ٢٠٠١ ــ دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع بالإسكندرية.

١١ ــ جســر درويــش ووصــايا أمل ٢٠٠٣ ــ دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع بالإسكندرية.

١٢ ــ اســتعادة الإســكندرية ٢٠٠٣ ــ دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع بالإسكندرية.

١٣ ــ ثورة النشر الإلكتروني ٢٠٠٤ ــ دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع بالإسكندرية.

١٤ ــ على شواطئ الاثنين في القصة والرواية ٢٠٠٥ ــ مطبوعات ندوة الاثنين بالإسكندرية.

رابعا: أدب الرحلات:

١ ــ رأيــت بــاريس ٢٠٠٥ ــ دار الوفــاء لدنــيا الطــباعة والنشــر والتوزيع بالإسكندرية.

خامسا: المعجمية العربية

١ ــ معجم الدهر ١٩٩٦ عن دار المعراج الدولية للنشر والتوزيع بالرياض.

٢ ــ معجم شعراء الطفولة في الوطن العربي خلال القرن العشرين ١٩٩٨ عن دار المعراج الدولية للنشر والتوزيع بالرياض.

٣ ــ معجــم أوائــل الأشــياء المبسط ١٩٩٩ عن دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع بالإسكندرية.

٤ ــ مصر في القاموس المحيط. مطبوعات الكلمة المعاصرة ــ إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافي.

سادسا: النشر الإلكتروني:

١ ــ المتفلســف. ديــوان شعر ــ دار النشر الإلكتروني (كتب عربية) ــ القاهرة ٢٠٠٥.

٢ ــ رأيــت بــاريس (في أدب الرحلات) ــ دار النشر الإلكتروني (كتب عربية) القاهرة ٢٠٠٥

سابعا: المشاركة في أعمال موسوعية مع آخرين:

١ ــ دلــيل مؤتمرات المملكة العربية السعودية ١٩٨٩ عن شركة الدائرة للإعلام بالرياض.

٢ ــ معجــم الأدباء والكتاب السعوديين ــ ط١ ١٩٩٠ عن شركة الدائرة للإعلام بالرياض.

٣ ــ معجــم البابطين للشعراء العرب المعاصرين ١٩٩٥ عن مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بالكويت.

٤ ــ الموســوعة العربــية العالمــية ١٩٩٦ عن مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع بالرياض.

٥ ــ قــرنفلة لســيدة الــبحار (شــعراء مــن الإسكندرية) ١٩٩٨ عن فرع ثقافة الإسكندرية.

ثامنا: الصحافة

١ ــ رئيس تحرير مجلة فاروس للآداب والفنون (ماستر) صدر منها ٧ أعداد ثم توقفت (كما صدر ٣ كتب عن مطبوعات المجلة)

٢ ــ مراسل جريدة الجزيرة السعودية خلال الفترة ١٩٨٢ ــ ١٩٩٦

٣ ــ مراسل مجلة مرآة الأمة الكويتية خلال الفترة ١٩٨٤ ــ ١٩٨٦

٤ ــ عضو هيئة تحرير مجلة الأدب الإسلامي خلال الفترة ١٩٩٤ ــ ١٩٩٧

٥ ــ عضو تحرير السلسلة الأدبية أصوات معاصرة بالزقازيق

٦ ــ مديــر الــتحرير التنفيذي لمجلة "الكلمة المعاصرة" التي يصدرها إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافي.

٧ ــ رئــيس تحريــر مجلــة "الثغر" التي تصدر عن هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية.

٨ ــ محــرر ثقافــي بموقــع ميدل إيست أونلاين دوت كوم www.middle-east-online.com وموقع أمواج دوت كوم www.amwague.com (الموقع الثقافي لمدينة الإسكندرية).

تاسعا: جوائز حصل عليها

١ ــ الجائزة الأولى من المجلس الأعلى للثقافة ــ لجنة الدراسات الأدبية واللغوية عام ١٩٩٩ عن بحث "تكنولوجيا أدب الأطفال".

٢ ــ جائــزة أفضل إخراج فني للمجلات الإقليمية من الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠١.

٣ ــ درع نــدوة الــثقافة والعلــوم بدبــي ــ عــن بحثه "ثقافة الطفل في عصر التكنولوجيا" ٢٠٠٣.

٤ ــ درع الاتحـــاد العـــام للكـــتاب والأدبـــاء العرب واتحاد الكتاب الجزائريين لمشـــاركته ببحـــث " الطفل والحرب في فضاء الشعرية العربية المعاصرة، بالمؤتمـــر العـــام الثاني والعشرين للأدباء والكتاب العرب المنعقد بالجزائر ٢٠٠٣.

٥ ــ شهادة تقدير من إدارة مهرجان الشعر الدولي (خيمة علي بن غذاهم) ــ تونس ٢٠٠٤

٦ ــ جائــزة الجــدارة والتمــيز ــ من جمعية نهوض وتنمية المرأة بالقاهرة عن دراسته "قراءة في الإبداع الروائي للمرأة المصرية" ــ ٢٠٠٤.

٧ ــ تذكارية مهرجان الشعر العراقي الأول بالكويت ــ مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ــ الكويت ٢٠٠٥.

٨ ــ درع كلية التربية ــ جامعة الإسكندرية ــ ٢٠٠٥.

٩ ــ شهادة تقدير من إدارة مهرجان الشعر الدولي (خيمة علي بن غذاهم) ــ تونس ٢٠٠٦

١٠ ــ درع كلية التربية ــ جامعة الإسكندرية ــ ٢٠٠٦

١١ ــ تذكارية افتتاح مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي ــ مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ــ الكويت ٢٠٠٦

عاشراً :

- ترجمــت بعــض قصائده ومقالاته إلى اللغات :الإنجليزية والفرنسية والإسبانية واليونانية والألبانية والروسية والصينية .

تم بحمد الله

مع تحيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية